هو من عند الله !!

لفضيلة الأستاذ الشيخ أبي الوفاء محمد درويش
[رحمه الله]

قالت امرأة عمران ، بعد أن أثقلت واستبان حملها :
[رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً ، فتقبل مني ، إنك أنت السميع العليم .
فلما وضعتها قالت ـ في ألم وحسرة ـ رب إني وضعتها أنثى ، وإني سميتها مريم ، وإني
أعيذها بك من الشيطان الرجيم][1].

ثم عنيت بها أكثر مما تعنى الأمهات ببناتهن ، وأشبلت عليها كل الإشبال ، ومنحتها من حبها ترتضع أفاويقها كلما طاب لها أن تتغذى ، وحلا لها أن تكن ألم الجوع .

حتى إذا شبت هذه النذيرة ؛ واستغنت عن عناية النساء ، واستطاعت أن تنهض بعبادة الله وخدمة المسجد سارت بها إلى المحراب ، ووضعتها هنالك وفاء بنذرها ، وهي ترجو أن يهيىء الله لها من يرعاها ويعنى بشأنها . فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتاً حسناً ، واختصم فيها الأحبار ، وألقوا أقلامهم : أيهم يكفلها ، وكتبت الأقدار لزكريا أن يكون لها كفيلا ، فأبدى لها كل حنو وحدب ، وصار بها براً ، ، عليها عطوفا ورعاها الله في نشأتها ، وبارك عليها ، ولزمت محرابها تعبد الله ، وتؤدي أمانتها وفاء بنذر أمها . وأحبها الناس ، وهوت إليها أفئدتهم ، وتتابعت عليها ألطافهم وهداياهم ، وتوالت عندها تحفهم وهباتهم . وكان زكريا لا يغب زيارتها ، ولا يغفل رعايتها . وكان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً ، فيأخذه لذلك عجب أي عجب ، ولا يتمالك أن يسألها : (يامريم ، أنى لك هذا) ويسمع منها دائماً ذلك الجواب الحصيف : (هو من عند الله !!)

(١) من سورة آل عمران الآية ٣٥ و٣٦

قول سديد ، وجواب رشيد !

أجل ، هو من عند الله . فانها نظرت — على الرغم من صغرسنها — إلى مسبب الأسباب ، ولم تنظر إلى الأسباب . نظرت إلى الرازق ذى القوة المتين ، ولم تنظر إلى المرزوقين الضعفاء المخلوقين ، لعلمها أن كل رزق يناله الإنسان فالله تعالى مرسله ، وكل خير يصل إليه فالرزاق سبحانه ميسره .

هذه هى الحقائق التى يشهد بصحتها العقل ، ويؤيدها الواقع ، ولاتنكرها طبائع الأشياء ، ولاتخرج عن سنة الله ولكن القصاص الذين يحرصون على أن يستثيروا عجب العامة وإعجابهم يأبون إلا أن يقولوا : إن يقولوا : إن هذا الرزق كان ينزل عليها من السماء ، وإنها لم تلتقم ثدىي أنثى قط . وإنها كانت فى حصن حصين أو معقل أشب ، وإن زكريا كان إذا خرج من عندها أغلق عليها سبعة أبواب ، بحيث لايتسنى لأحد أن يدخل عليها ، وإن فاكهة الصيف كانت تأتيها فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء توافيها فى الصيف ، يجارون فى ذلك بعض المفسرين الذين لايتحرون الحق ولايستمسكون بالصواب .

هذه الأقوال كلها من رسوسة الخيال لايعضدها قرآن ، ولاتؤيدها سنة صحيحة ولاسقيمة ، ولايقرها عقل ولا طبع ، ولا تساير سنن الله فى نظام الأسباب والمسببات ، وإنما هى من نسج المخيلات ، واتباع الظنون والأوهام .

تأبى طبائع الأشياء إلا أن ترضع امرأة عمران ابنتها كما ترضع الوالدات أولادهن حولين كاملين ، وأن تعنى بها حق العناية ، وتتعاهدها بالنظافة كما تتعاهد كل أم طفلها الحبيب الذى هو قرة عينها وريحانة صدرها . وإذا ذكرنا أنها نذرتها لله ، أيقنا أن كل عناية توجهها إليها : إنما هى عبادة لله وإزدلاف إليه . حتى إذا ترعرعت ، واستغنت عن عناية أمها : قدمتها إلى المسجد وفاء لنذرها ، وتلك التى تقبلها ربها بقبول حسن لابد أن يهيىء لها أسباب الصحة والعافية فيجعل ثدىي أمها تدران عليها كل حين يأذن ربها ولم يتركها للتغذية الصناعية التى تعرضها الأمراض والأوئاب .

ولم تحمل بها أمها سفاح ، فتتخلص منها وتلقى بها على عتبة مسجد ليلتقطها المحسنون يغذونها باللعقة أو القطارة أو الأثداء الصناعية إن أعوزتهم المراضع .

والقول بأن زكريا كان إذا خرج من عندها أوصد دونها سبعة أبواب : أمعن فى الكذب ، وأعرق فى الاختلاق ، وأبعد عن الحق ، وأدنى إلى الخرافة . فهل كان زكريا يخشى عليها الهرب ؟ أو يتوقع منها الفرار حتى يقفل من دونها الأبواب ، ويوصد الأقفال ؟ أم هل كانت مجرمة قضى عليها بالسجن العميق المؤبد الذى لم يكتف له بباب واحد وغلق واحد ، بل أقيمت عليه سبعة أبواب ، وضعت عليها سبعة أغلاق ، إمعاناً فى التنكيل بها ، وغلواً فى تعذيبها ؟ أم هل كانت فاجرة يخشى عليها الخفاء ، فوضعت من وراء الأبواب الموصدة ، والعمد الممددة ، حتى لا يصل إليها الفسقة والداعرون ؟

وهل من الإكرام لفتاة نذرتها أمها لله تقرباً إليه وتوصلا إلى رضاه : أن يزج بها فى أعماق السجون حتى تحرم من ضوء الشمس ، ونسمات الهواء ؟

إن كنتم يا معشر القصاص قد ألغيتم عقولكم فاتقوا الله فى عقول الناس . إن كل هدية تقدم إلى تلك التى نذرتها أمها محررة لله : إنما هى قربان لله تعالى ، ولاجرم أن هؤلاء الأحبار الذين كانوا ينافسون زكريا فى كفالتها لم يقطعوا حبل مودتها بعد أن صارت كفالتها لزكريا ، بل صاروا يتقربون إلى الله تعالى بصلتها والإهداء إليها . وغير الأحبار من الربانيين - الذين يحبون الله ويحبون هذه الذخيرة التى نذرت لله - يتقربون كذلك إلى الله بصلتها والإهداء إليها ، ويتعاهدونها بشتى الهبات من الطعام والفاكهة والثياب والحلى وغير ذلك مما يلطفون به تلك التى نذرتها أمها لله . فكان محرابها حافلا بالخيرات مغموراً بالهبات ، زاخراً بالأرزاق .

وتواجه القصاص بهذه الحقائق فينكرونها ، ويقولون : ما كان لسليلة عمران فى فضلها وشرفها أن تأكل الصدقات . أين الصدقات من الهدايا والهبات ؟

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو أفضل من أظلت السماء

وأغلت الأرض — يقبل الهدية . فمن ذا الذى يسوغ له أن يترفع عما قبله سيد المصطفين الأخيار ؟

حسبوا أن الرزق لا يكون من عند الله إلا إذا هبط من السماء ، ونسوا أن كل رزق يصل إلى الإنسان والحيوان والطير إنما هو من عند الله وأن مايقتضاه الموظف من خزانة الدولة إنما هو من عند الله . وما تجود به الأرض على الزراع من الحب والفاكهة والخضر إنما هو من عند الله . وما يكسبه الصانع بصناعته : إنما هو من عند الله .

لو أن الرزق كان ينزل عليها من السماء — كما يزعمون — لما أمرها الله أن تهز إليها بجذع النخلة ولوجدت الرطب الجنى بين يديها بغير سعى ولا كسب . ولكن لله تعالى سننا لاتتبدل .

ألا لو أن القرآن أخبرنا بذلك الذى أخبرونا به لصدقنا وآمنا وأيقنا ولو أن الأحاديث النبوية أنبأتنا به لصدقنا وآمنا وأيقنا . ولو أنه موافق لسنة الله تعالى ونظام الأسباب والمسببات لصدقنا وآمنا وأيقنا . ولو أن العقول السليمة تقبله وتسيغه لصدقنا وآمنا وأيقنا ، ولو أدى إليه البحث والتفكير الصحيح وصدق النظر لصدقنا وآمنا وأيقنا.

ولكنها أباطيل وأوهام ، لاتمت إلى الحق بسبب قريب ولا بعيد .

وصدق الله إذ يقول [ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير]

من أخبار العالم الإسلامى

● افتتح الأستاذ الدكتور عبد العزيز حجازى رئيس مجلس الوزراء يوم السبت ٣٠ ذوالقعدة ١٣٠٤ للموسم الثقافى الإسلامى للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية الذى دعى إليه السيد الأستاذ محمد توفيق عويضة أمين عام المجلس ، وقد ألقى سيادته كلمة قيمة تبعث على الاطمئنان ، وتوحى بالثقة فى أن الأمر اليوم فى يد مسلمة أمينة حريصة على دينها .

نور السماوات والأرض

بقلم : الشيخ أبى الوفاء محمد درويش
رحمه الله

النور فى اللغة : هو الضوء المنتشر الذى يعين على رؤية الاشياء ، وهو عامل خارجى عن العين يؤثر فى أعصابها تأثيرا يعبر عنه بالابصار •

وقد اتسع محيط علمنا بالضوء فى العصور الحديثة اتساعا عظيما بفضل هداية الله تعالى طائفة من العلماء ، أنار بصائرهم ، ووفقهم الى كشف كثير من الحقائق العلمية التى تتصل بالضوء ، والتى كانت تخفى على البشر ، فى العصور الماضية •

ومما أجمع العلماء عليه : أن العين لا ترى جسما الا بما يصل اليها من ضوئه ، سواء أكان ضوءه ذاتيا أم مرتدا : أى منعكسا عن الجسم من آخر ، والانعكاس هو الوسيلة الى رؤية الاشياء التى لاتضىء بذاتها •

ومما اتفق عليه أكثر العلماء : أن هناك شيئا يملأ الفضاء ، وهو وسيلة انتشار الضـــوء ، وذلك الشىء هو المسمى بالاثير • وهو مرن ، عديم الذرات ، قليل الكثافة ، لا تدركه الحواس ، يتخلل جميع الاجسام وينفذ فيها ، مهما تكن كثافتها أو صلابتها وهو مائج مذبذب دائمـــا . وأمواجه هى التى تنقل الضوء الى الابصار اذا بلغت عددا معينـــا فى الثانية ، فاذا زاد عددها أو نقص عجزت الابصار عن رؤية ما ينقله اليها من الضوء •

هذا وقد كشف العلماء أن ضوء الشمس مركب من سبعـــة ألوان مرتبة على هذا الوضع : الاحمر ، فالبرتقالى ، فالاصفر ، فالاخضر ، فالازرق ، فالنيلى ، فالبنفسجى •

واختلاف عدد أمواج الاثير أو ذبذباته فى الثانية ، هو الذى يؤثر فى شعورنا بهذه الالوان ، وقرروا كذلك أن هناك أشعة لا تدركها أبصارنا ، وهى الاشعة تحت الحمراء ، وفوق البنفسجية ، وقد دلت عليها العلماء آلات خاصة هدوا الى ابتكارها من عهد قريب • وقد التقطت هذه الآلات

أشعة لا يعرف مصدرها فسماها العلماء الاشعة الكونية ، وقرروا أيضا أن سرعته فى الفضاء هى ١٨٦ ألف ميل فى الثانية تقريبا • وهناك حقائق أخرى كثيرة تتصل بالضوء ضربنا عنها الذكر صفحا أن كان ادراكها يشق على من لم يتمرسوا بالعلوم الطبيعية •

وقد صار الضوء علما مستقلا يدرس فى المدارس له مبادئه وقوانينه وأجهزته ، وانما ألمعنا الى الحقائق التى ألمعنا اليها لنبين للقارىء الكريم أنه كلما زاد المام الناس بقوانين الضوء اتسع فهمهم لمعنى اسمه تعالى « نور السموات والارض » •

هذا والنور نوعان : حسى ومعنوى وكل ما كتبناه الى الآن انما هو فى النور الحسى ، أما النور المعنوى : فهو نور العقول والاذهان والبصائر والافهام ، ونور الهداية والارشاد المستمد من الكتب السماوية، وحكم الانبياء والمرسلين ، وتعليم الهداة والمرشدين •

قال تعالى : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم) وقال تعالى : (انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) وقال تعالى : (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين) •

هذا وكل نور حسى أو معنوى فى السماء والارض ، وفى الدنيا والآخرة ، فرب العزة سبحانه هو موجده ، ومن أجل ذلك أخبر سبحانه عن نفسه أنه نور السموات والارض ، أى منورهما بما خلق ودبر ووهب ومنح من أنوار حسية ومعنوية ، وبما هدى وأرشد وأوحى وألهم •

سمى نفسه نور السموات والارض مبالغة : لان هذا النور لا يملكه غيره ، ولا يقدر عليه سواه • ولو اجتمع من فى السماوات ومن فى الارض على أن يُوجدوا ومضة نور أو شعاعة ضوء ما وجدوا الى ذلك سبيلا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا •

ان فى اختراع النور الحسى لآية بينة على القدرة التى لا حد لها ، والعلم الذى لا نهاية له ، والحكمة التى لا غاية لها •

ماذا يكون مصير هذا العالم لو ساده الظلام ، ولم يشرق فيه نور ؟

ماذا يكون مصير النبات والحيوان والانسان لو لم يكن فى هـذا العالم نور يستمد منه النبات لونه ونماءه ، ويستمد منه الحيوان نموه وقوته ويهتدى به الى ضرورياته ، ويزاول فيه الانسان عمله الذى تعتمد عليه حياته ؟

ولقد جعل الله السماء مصدر النور الطبعى ، وهدى أهل الارض الى اختراع نور يستعيضون به عن ضوء السماء اذا احتجبت الشمس ، فجعل النار مصدر النور ، وجعل من الاجسام ما يتصل بالنار أى يحترق فيبعث النور ، كالخشب والفحم والزيت والنفـط والشمع وغيرها من الاشياء التى اذا اتصلت بالنار أشعت نورا يمحو الظلام عن المكان الذى يريد الانسان أن ينوره •

ولقد هدى سبحانه أخيرا الى الاستضاءة بالكهرباء الناشئة من تحاك بعض الاجسام ، أو تفاعل بعض العناصر ، فاذا مرت بسلك دقيق من فلز معروف ، موضوع بنظام خاص ، فى زجاجة مفرغة ، توهج السلك ، وأحدث ضوءا قويا أو ضعيفا طوعا لحجمه • وهذه آية من آيات الله ظلت خفية أحقابا متطاولة ، ثم جلاها سبحانه لوقتها ، حين هدى بنوره اليها من وفقه الى كشفها •

ولقد هدى سبحانه الانسان منذ القرون الاولى الى أن احتكاك الصوان بقطعة من الصلب تحدث شررا • فكان يتلقى هذا الشرر فى مادة قابلة للاحتراق فتشتعل وتحدث النار والنور •

وكان قد هداه من قبل ذلك الى أن احتكاك أغصان الشجر بتأثير الريح العاصف يحدث النار والنور ، فكان يحاكى الطبيعة ويعرك قضيبين من الحطب بعضها ببعض فيشعل النار ويبعث النور •

وقد منح الله الانسان والحيوان والطير والحشرات أبصارا تدرك النور ، وتبصر ما يقع عليه أو يرتد عنه • وماذا يكون الشأن لو خلق الله النور ، ولم يخلق الحاسة التى تدركه ، وماذا يكون الشأن لو خلق الحاسة التى تدرك النور حيث لا نور ؟

ولكن نور السموات والارض خلق النور ، وخلق الحاسـة التى تدركه ، فتمت الفائدة ، وتحققت الحكمة ، وقامت الحجة •

وأعود فأقول : ان ابتداع النور لامر رائع ، ونبأ عظيم ، وما أبلغه دلالة على القدرة الشاملة ، والعلم الواسع ، والحكمة البالغة !

ما الشأن لو أن الدنيا كلها ظلام دامس ، وليل سرمدى لا يعقبه نهار ، ولا صبح له ولا مساء ؟

ان اختراع الغريزة والذهن ، والفكر والعقل ، والبصيرة والوجدان ، وهى مصادر الانوار المعنوية ، لآية بينة على قدرة الخالق المبدع ، وواسع علمه وبالغ حكمته ، وعلى أنه نور السموات والارض والدنيا والآخرة •

كتلة من اللحم والدم والعصب والعظم تفكر وتقدر وتخترع وتبتدع ، وتأتى بالمدهشات والاعاجيب من ثمار العقل ، ونتائج الفكر وروائع التدبير ، بفضل ما أفاض عليها نور السموات والارض من نور • سبحانك يا نور السموات والارض !

من منحته النور فقد هديته الى سبيل الرشاد ، ومن حرمته فانه يضل ضلالا بعيدا • ووحى الله تعالى الى رسله وأنبيائه ، وشرائعه التى أنزلها لعباده ، نور يهتدون به طريق السعادة • وأعداء الحق يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون •

فمن اهتدى بنور الشرائع فى الدنيا ، وسار على هداه ، متعه الله بالنور الاخروى الذى يشع من المؤمنين ، ولا يخضع لقوانين النور المعروفة فى هذه الحياة الدنيا •

قال تعالى : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) وقال تعالى : (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم • قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) وقال تعالى : (يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم • يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شىء قدير) •

هذا وقد جعل رب العزة النور حجابا له دون خلقه رحمة بهم ورأفة بضعفهم • روى أن جبريل عليه السلام قال : لله دون العرش سبعون حجابا لو دنونا من أحدها لاحرقتنا سبحات وجه ربنا •

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ــ حين سئل : هل رأيت ربك ؟ ــ : « نور أنى أراه وحجابه النور ؟ ــ وفى رواية ــ ولو كشفه لاحرقت سبحات وجهه كل شىء أدركه بصره » أى : لو انكشف من أنوار الله التى تحجب العباد عنه شىء لاهلك كل شىء وقع عليه ذلك النور ، كما خر موسى صعقا ، ودك الجبل دكا لما تجلى الله سبحانه وتعالى •

ولربنا سبحانه نور ذاتى لا يشبهه شىء مما نعرف ومما لا نعرف من هذه الانوار المخلوقة قال تعالى : (وأشرقت الارض بنور ربهـا) وقال عليه الصلاة والسلام من دعاء الطائف المأثور « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليهَ أمر الدنيا والآخرة أن يحل بى غضبك أو ينزل بى سخطك » •

وكان السراج المنير صلى الله عليه وسلم يحب النور ، نور الحق والخير والفضيلة ، ويسأل الله أن يجعل النور فى كثير من أعضائه • فمن مأثور دعائه صلى الله عليه وسلم : « اللهم اجعل فى قلبى نورا ، وفى بصرى نورا ، وفى سمعى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن يسارى نورا ، وفوقى نورا ، وتحتى نورا ، وأمامى نورا ، وخلفى نورا ، واجعل لى نورا » •

ومراده عليه الصلاة والسلام : أن يدعو ربه ــ وهو نور السموات والارض ــ أن يجعل مداركه كلها تنصرف دائمـا الى الحق والخـير والفضيلة ، وأن يجعل سبيله دائما الى الحق والخير والفضيلة ، وأن يجعل الهداية والتوفيق ملازمين له فى سائر تصرفاته ، وجميع أعمـاله ومعاملاته ، حتى يتم له الفضل من جميع جهاته ، ويحظى برضوان الله فى جميع أوقاته •

وقد جعل الله النور حظ المؤمنين الاتقياء فقال تعالى : (يا أيهـا الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم ، والله غفور رحيم) •

نسأله تعالى بنور وجهه الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة : أن يجعل لنا نورا نمشى به ، يسعى بين أيدينا وبأيماننا، وأن يكتب لنا التوفيق والهداية الى أمثل طريق • انه أكرم مسئول ونعم المجيب •

أبو الوفاء محمد درويش

مثل الفريقين

بقلم فضيلة الشيخ: ابو الوفاء محمد درويش
رحمه الله

من أمثال القرآن :

قال تعالى :

مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع • هل يستويان مثلا ؟ أفلا تذكرون (٢٤ : ١١) •

أمد الله سبحانه الانسان بأنواع من الهدايات ليعده لما خلق له • وهو السعادة بعبادته تعالى والظفر برحمته والحظوة بجنته • فقد منحه هداية الفطرة • اذ أودع فطرته شعوراً خاصاً بأن له الهاً قادرا حكيما يفزع اليه عند الشدائد : ويستغيثه لدى الملمات •

والدليل على ذلك أن الانسان يلحد ما يلحد ويشرك ما يشرك ويعرض عن ربه ما مده الشيطان فى الغى حتى اذا حلت به نكبة وأصابته قارعة نسى الحاده وشركه واعراضه وأقبل على ربه يدعوه ويضرع اليه ويستمد منه الرحمة والاحسان •

قال تعالى فى سورة الانعام : (قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة • أغير الله تدعون ان كنتم صادقين ٤٠ بل اياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه ــ ان شاء ــ وتنسون ما تشركون ٤١)•

والى هذا المعنى يشير قوله تعالى فى سورة الأعراف (واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ١٧١ أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية

من بعـــدهم أفتهلكنـــا بما فعل المبطلون ١٧٢) •

ومنحـــه تعالى السمع والبصر والفؤاد لينظر فى ملكوت السموات والأرض ويرى آثـــار وجود الله تعالى وآيات علمه وحكمتـــه وبينات رحمتـــه وقدرته ، ويستمع الى كتبـــه المنزلة ليعلم ماذا يريـــد منـــه ربـــه وخالقه ويتفكر فى نفسه وتكوين خلقـــه وخواص أعضائه لينفـــذ من ذلك الى اعماق الأسرار الالهية فى تركيبه وتصويره •

وأرسل اليـــه الرسل مبشرين ومنذرين ليبصروه صراط الحـــــق ويدعوه الى وجوب السير فيهـــا ، وأنزل الكتب وضـــمنها من وســـائل الهـــداية والارشاد ما فيه بلاغ ، فأما الموفقون فقـــد انتفعوا بهـــذه الهدايات ، واستمدوا منهـــا العبر وتقبلوا هـــدى الله الـــذى أنزل اليهم فسعدوا وفازوا وكانوا من المفلحين ، وأما الاشقياء المخـــذولون فقـــد اتخذوا آيات الله هزوا ، وطووا دونها كشحا ، وعطلوا مشاعرهم • فلم يرسلوها ترود فى آفاق السموات والأرض وتستدل بالأثر على المـــؤثر وبالصنعة على الصانع وبالخلق على الخالق بـــل استحوذت عليهم الغفلة وملكهم الجمود واستبدت بهم العادات الموروثة واتبعوا مـــا ألفوا عليه آباءهم فباءوا بغضب من الله واستحقوا سوء المصير •

فى هـــذا المثل شبه الله الكافر المعرض عن النظر فى آيات الله فى الآفاق والأنفس الـــذى يسمع آيات الله تتـــلى عليه ثـــم يصـــــــر مستكبراً كأن لـــم يسمعها بالأعمى والأصـــم •

فكما أن الأعمى ليس له بصر يهـــديه سبله ، والأصم ليس لـــــه سمع يوصـــل العلم الى عقلـــه كذلك هـــذا المعرض الـــذى عطل نعمة السمع والبصر فأصبح كمن ليس له سمع ولا بصر •

وأى فرق بين أعمى لا يبصر وبصير لا ينتفع ببصره كمـــا ينتفـــع البصراء ، وأى فرق بين أصـــم لا يسمع شيئا وسميع لا يفيد شيئـــا مما يسمع كما يفيـــد السمعاء ؟ ان الفريقان الا سواء •

أمـا الأعمى المكفوف الـذى لا يهتـدى سبيلا ، والبصير الذى يهـديه بصره الى مـا يهتدى اليـه المبصرون فانهما لا يستويان .

وأمـا الأصـم الـذى لا يدرك سمعه الاصوات والسميع الذى يـدرك بسمعه مختلف الاصوات ومتباين الاجراس فانهما كذلـك لا يستويان . وقـد أخبر تعالى أن هـذين الفريقين لا يستويان مثلا وساق هـذا الخبر مساق الاستفهام ليكون أبلغ وأروع وأدل على فضل المؤمن المستبصر المتـدبر وخسة الكافر الغافل المتحير .

هـذا الفريق الغافل الـذى شبهه الله بالأعمى والأصـم تصادفه كثيراً فى النـاس فى كل زمان ومكان : أولئك هم أسرى الجهـل والجمود وصرعى الأوهـام والخرافات وعبيـد الأهواء والشهوات الـذين لا يستجيبون لنصيح ولا يرعوون عن قبيح .

وان منهم لهـؤلاء الـذين لا يستجيبون لدعـوة الناصحـين ويستجيبون لدعوى الـدجالين الـذين يزعمون أنهم يسـخرون الجن والشياطين وأن لهم من الجن أزواجـاً يشفين المرضى ويقضين الحاجات وأنهم يملكون مفاتيح الكنوز التى انطوت عليها جوانح الأرض .

لولا الغفلـة العميقـة مـا وجـدت هـذه الحشرات الخبيثـة والطفيليات الدنيئة سبيلا الى امتصاص أقواتها من دمـاء هـؤلاء الغافلين الـذين لا ينتفعون بالعبر ، ولا يتعظون بالمثلات .

ومن لـم يجعل الله لـه نوراً فمـا لـه من نـور .

أبو الوفاء محمد درويش

من أمثال القرآن :

مثل من يدعو غير الله

بقلم فضيلة الشيخ أبو الوفا محمد درويش رحمه الله

قال تعالى :

(له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا فى ضلال ١٤ : ١٣) .

الدعاء نداء من يعين على قضاء الحاجات ، أو دفع الكربات أو كفاية المهمات ، من غير طريق الأسباب والعادات . ولا يملك ذلك الا رب العالمين الحى القيوم سبحانه ، فالدعوة التى توجه اليه سبحانه دعوة حق ، لانها توجه الى سميع قريب مجيب . والدعوة التى توجه الى غيره دعوة باطل ، لانها توجه الى عاجز لا يقدر على شيء ، والدعاء عبادة لقوله ﷺ « الدعاء مخ العبادة » أى صفوتها ولبابها . والعبادة لا تكون الا لله الخالق الرازق جل شأنه ، وعبادة غيره شرك . فدعاء غيره شرك لأن الدعاء عبادة كما تقدم .

فاذا سطا لص على شخص مثلا ، فقال : يا سيد يا بدوى أغثنى وهو يعتقد أن السيد البدوى يسمع دعاءه ، ويقدر على اغاثته كان مشركا بالله تعالى ، وكذلك اذا هجم أفعوان على شخص فقال : ادفعه عنى يا رفاعى ، وهو يعتقد أن الرفاعى يملك قوة غيبية وراء الأسباب يستطيع بها أن يسمع النداء ويدفع المكروه كان مشركا بالله كذلك . والدعوة الموجهة الى البدوى والرفاعى دعوة باطل . مثلها كمثل الدعوة التى كانت توجه فى الجاهلية

الى اللات والعزى ومنـــاة وهبـــل .

ضـــل النـــاس حينـــا من الـــدهر سبيل الفطرة السليمة وتنكبوا طريق الهـــدى المستقيم ، وتورطوا فى جاهلية جهلاء ، وانحـــدروا من أفـــق الانسانية الأعلى الى حضيض بـــل الى هـــوة لا يـــدرك غورها ولا ينـــال قعرها حين انصرفوا عن عبـــادة الله تعـــالى وعبـــدوا غـــيره من انسان ضعيف لا يملك لنفسه نفعـــا ولا ضراً ، أو حيوان لا عقـــل له ولا تمييز ، أو جمـــاد لا حس لـــه ولا حركة .

فلمـــا أراد الله تعـــالى أن يقيل عثرة الانسانيـــة وينتشـــلها من أوحالها ، ويرد اليهـــا مـــا عزب من رشدها ، ومـــا غـــاب من صوابها بعث اليها محمدا ﷺ بالهـــدى ودين الحق ليـــدعوها الى عبـــادة الله وحـــده ، ونبـــذ كل مـــا كان يعبـــد من دونه ، وأنزل معـــه كتـــابا عزيزا لا يأتيـــه الباطـــل من بين يـــديه ولا من خلفه ، فصـــل فيـــه الآيـــات تفصيلا ، وبين فيـــه الحقائق تبيينـــا ، وضرب فيـــه الأمثـــال للنـــاس لعلهم يتذكرون مـــا نسوا من حقائق الكون ، وطبائع الأشياء والهام الفطرة ، عسى ان تثـــوب اليهم عقولهم التى ران عليها الجهـــل وشلهـــا الحرص على اقتفـــاء آثار الآبـــاء ، فيفرقـــوا بـــين صـــفات الخالق ، وصـــفات المخلوق ، ويعرفوا أيهمـــا الخليق بالعبـــادة ، وأيهما الجـــدير بأن يتوجـــه اليـــه الناس بالضراعة والـــدعاء .

فى هـــذه الآيـــة الكريمة التى ضرب الله فيهـــا المثـــل لمن يدعو من دون الله مـــا لا ينفعـــه ولا يضره ، بين تعـــالى أن الدعوة نوعان : دعـــوة حق ، ودعـــوة باطـــل ، أمـــا دعوة الحق فهى الدعوة النافعـــة التى يسمعها المـــدعو ويستجيب لها ، وهى التى يتوجـــه بهـــا صاحبها الى الله تعـــالى الـــذى يجيب المضطر اذا دعـــاه ، ويكشف الســـوء ، لانـــه هو السميع البصير ، الـــذى بيـــده ملكوت كل شىء ، وهـــــو يجـــير ولا يجار عليه ، وان من شىء الا عنـــده خزائنه ، ولـــو اجتمع الخـــلق كلهم أولهم وآخرهم وانسهم وجنهم فى صـــعيد واحـــد ، ثم سألوه فأتى كلا منهم سؤله مـــا نقص ذلك من خزائنه الا كمـــا ينقص

المخيط اذا غمس فى البحـــر •

أمـــا دعـــوة الباطل فهى الدعوة التى لا تسمع ولا تجـــاب وهى التى توجـــه الى غـــيره تعـــالى •

وغيره تعـــالى أمـــا أن يكو نحيـــا أو ميتـــا • أمـــا الميت فقـــد انقطع عملـــه بشهادة الرسول ﷺ اذ يقول : (اذا مـــات ابن آدم فقد انقطع عمله الا من ثلاث : صـــدقة جـــارية ، وعـــلم نافـــع ، وولـــد صـــالح يـــدعو لـــه) • واذا انقطع عمله لنفسه فأحرى أن ينقطـــع عملـــه لغـــيره •

وأمـــا الحى ، فاما أن يكون غائبـــا أو حاضرا • فأما الحاضر فان طلبت اليـــه مـــا يملكـــه كالمساعـــدة على رفع شىء ثقيـــل لا تقـــدر على رفعـــه وحـــدك ، لـــم يكن هـــذا دعـــاء ، بـــل هـــو من طـــلب التعـــاون على البر • وذلك مطلوب شرعا •

واذا طلبت اليـــه مـــا لا يملكه كتيسير الرزق وشـــفاء المريض ، ومنح الـــذرية ، وغير ذلك من الأمـــور التى لا يقـــدر عليهـــا الا الله كانت دعوتك دعـــوة باطـــل وكانت مع ذلك شركا مخرجا من ملـــة الاســـلام •

وأمـــا الغائب فانـــه لا يسمعك ، ولا يعـــلم بدعوتك ومن اعتقـــد أن الغائب البعيـــد يسمع دعـــاءه كان ملحـــدا فى أسماء الله تعـــالى ، لانـــه نسب عـــلم الغيب لغير الله تعالى • وانما الغيب لله (وعنـــده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هـــو) •

واذا ثبت أن الغائب لا يسمع الدعـــوة ولا يعلمها فـــدعاؤه ضلال مبين وشرك بالله رب العالمين •

شـــبه الله هـــؤلاء الـــذين يدعـــون غـــير الله بشخص ظـــامىء وقف على شاطىء نهر وبســـط كفيـــه الى المـــاء يرجـــوه ، ويسرف فى الرجـــاء ويضرع اليـــه ، ويلح فى الضراعة ، ويسأله ويبالغ فى السؤال أن يخرج من مكانـــه بغـــير أنبوب ولا وعـــاء ، ويسير فى الفضـــاء كما

يسير الضياء حتى يبلغ فاه ، فينقع غلته ، ويذهب حرقته ، والماء ثابت فى موضعه ، لا يسمع ولا يستجيب • ويظل هذا المتعلق بالأوهام المخدوع بالأباطيل واقفا فى مكانه يقتله الظمأ ، ويقضى عليه العطش ، ولن يبلغ الماء فاه ، ولن يبل صداه ولن يطفىء أوامه ولن يروى هيامه •

فلله ما أبلغ هذا التشبيه الرائع المصيب • ولله ما أروع هذا الكلام الذى يفيض بالحكمة ، وتومض فى خلاله دلائل الاعجاز •

ذلك مثل الذين يدعون غير الله فالق اليه بالك وأرعه سمعك ففيه ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد •

أبو الوفاء محمد درويش

مثل الذين كفروا بربهم

بقلم: فضيلة الشيخ أبو الوفا محمد درويش
رحمه الله

قال تعالى :

« مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد » • سورة ابراهيم آية — ١٨

الكفر فى اللغة ستر الشىء وتغطيته واخفاؤه ومنه قيل الليل كافر أى ساتر • وقيل للزراع كفار لأنهم يغطون الأرض بالنبات •

والكفر فى الشرع جحود ما صرح الكتاب المنزل بأنه من عند الله ، أو جحود الكتاب نفسه ، أو الرسول الذى جاء به • وعلى الجملة جحود كل ما علم من الدين بالضرورة بعد أن تبلغ الجاحد رسالة النبى ﷺ بلاغا صحيحا • وتعرض عليه الأدلة التى تثبت صحتها لينظر فيها ، فيعرض عنها ويجحدها عنادا أو استهزاء أو استكبارا أو تساهلا •

هذا هو الكفر فى نظر الصحابة رضى الله عنهم ولم يعرف أن أحدا منهم كفّر أحدا بغير ذلك •

وعلى ذلك لا يكون كافرا من أنكر شيئا مما نسب الى الدين ولم يصل العلم بأنه منه الى حد الضرورة ، أى لم يكن سنده قطعيا كسند الكتاب الا اذا قصد بانكاره تكذيب النبى ﷺ •

فمتى كان للمنكر سند من الدين يعتمد عليه فلا يكفر وان ضعفت

شبهته فى الاستناد اليه ما دام صادق النية فيما يعتقد ، ولم يستهن بشىء مما ثبت وروده عن المعصوم ﷺ ثبوتا قاطعا .

وقد اجترأ بعض المتأخرين على تكفير من يتأول بعض الأمور الظنية أو يخالف شيئا من الشئون الاجتهادية أو ينكر بعض المسائل الخلافية ، فجرءوا من يقتدى بهم على تكفير كل من يخالفهم حتى فى بعض العادات .

والمراد بالأعمال ما يأتيه الانسان من الصالحات التى تزكى النفس ، أو تنفع العباد .

وهذه الأعمال ان كانت صحيحة خالصة لوجه الله تعالى تقبلها وأثاب عليها ، واذا لم تكن صحيحة ولا خالصة لوجهه تعالى لم يتقبلها ، ولم يجز بها ، وهذا حق وعدل لا ظلم فيه ولا جور ، ولا يظلم ربك أحدا .

يقول الله تعالى فى سورة الزمر (انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق ، فاعبد الله مخلصا له الدين ؛ ألا لله الدين الخالص) .

وقال تعالى : (ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين) .

وقد جاء فى بعض طرق الحديث (اذا كان يوم القيامة أتى بصحف مجتمعة فتنصب بين يدى الله تعالى . فيقول الله تعالى لملائكته : اقبلوا هذا واقبلوا هذا ، فتقول الملائكة : وعزتك ما رأينا الا خيرا . فيقول : نعم ولكن كان لغيرى ، ولا أقبل اليوم الا ما ابتغى به وجهى) .

وفى حديث أحمد وابن ماجه والترمذى (اذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك فى عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عنده فان الله أغنى الأغنياء عن الشرك) .

وأترك للقارىء الحكم على أعمال هؤلاء الذين يستأجرون لقراءة عدد من سورة الاخلاص أو سورة يس أو لقراءة القرآن كله .

فيقرأون وهم يبتغون بقراءتهم وجه الله والأجر الذي يمنحهم المستأجر اياه • وأكل اليه الحكم على عملهم ان كانوا لا يبتغون الا وجه الأجر وحده كما هو شأن كثير منهم •

هـا نحن أولاء قـد رأينـا أن الأعمال التى يراد بهـا وجـه الله وشيء آخر معـه لا يقبلها الله ، فكيف بالاعمال التى لا يراد بهـا الا غـير الله ؟

ومن حـديث أبى موسى قال : جـاء رجل الى النبى ﷺ فقـال : الرجـل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للـذكر ، والرجل يقاتـل ليرى مكانه • فمن فى سبيل الله ؟ قال : من قاتـل لتكون كلمـة الله هى العليـا فهـو فى سـبيل الله •

فكل عمل أريـد بـه غـير الله فهـو غير مقبول حتى من المؤمنين فما ظنـك بالكافرين الـذين يعرفون الحـق ولكنهم ينكرونه عنـادا واستكبارا أو الـذين لا يعرفون الحق ، ولا يريدون أن يعرفوه اختفاظا بمـا كان عليه الآبـاء والأجـداد أو حرصـا على مجـد باطل من أمجاد الحيـاة ، أو توفيرا للـذة جسمية ، أو قضـاء لشهوة وهمية •

فمثل هؤلاء اذا عملوا عمـلا فلا يـدور بخلـد أحـد منهـم أن يجعل عملـه لله أو لنصرة دينـه أو لاعلاء كلمة الحق •

والايمان شرط فى صـحة أعمال الخـير جميعا ، فكل عمل لا يصاحبه الايمان فهـو باطـل ذاهب ضياعا •

وقـد شـبه الله تعـالى أعمالهم هـذا التشبيه الرائـع الـذى طبـق المفصل ، وأصـاب المحز ، وضرب لهم هـذا المثـل الحكيم الذى يأخـذ بمجامع القلوب ليحمل المؤمنين على الاستمساك بـدينهم والبعد عن جميع شوائب الشرك ، وأوضـار الكفر ، حتى لا تحبـط أعمالهم ويحرموا ثـواب ما كانـوا يعملون •

شـبه الله أعمال الكافرين وما يأتون من المكـارم كصـلة الأرحام وعتـق الرقاب وفـداء الأسرى ، وعقر الابـل للأضـياف (قـديما)

البقية صفحة (٣٣)

واغاثة الملهوفين ، وايواء العجزة والانفاق على المعوزين ، والرفق بالحيوان والطير ، وغير ذلك من أعمال البر والخير (حديثا) — شبه الله هذه الأعمال فى حبوطها وذهابها هباء منثورا لبنائها على غير اساس من معرفه الله تعالى والايمان به وكونها لوجهه برماد أرمد فى أرض عراء اشتدت به الريح فى يوم عاصف فلم تبق منه عينا و لاأثرا • ولم يقدر منه صاحبه على شىء • كذلك تعصف ريح الكفر برماد أعمال الكافرين فلا تبقى منها شيئا •

ولا ضلال أبعد من ضلال هؤلاء الذين يعملون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، أو ينالون أجرا ، وقد ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وخسروا أنفسهم • وذلك هو الضلال البعيد والخسران المبين•

نعوذ بالله من حبوط الأعمال وخيبة الآمال انه ولى التوفيق •

أبو الوفاء محمد درويش

أضلهم السامرى

بقلم : فضيلة الشيخ : أبى الوفاء محمد درويش
رحمه الله

هذا المقال سبق نشره منذ أكثر من ثلاثين عاما . ونقله الينا بنصه الأخ الفاضل الأستاذ يوسف محمد سليمان رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية بأسوان لكى يقرأه المسلمون من قراء مجلة التوحيد . ومناسبة ذلك أنه سمع فى اذاعة القرآن الكريم القاهرية أن سائلا بعث الى الاذاعة يسأل عن السامرى فلم يكن الرد عليه شافيا ولا كافيا ولا مقنعا .. بل ان مفتى الاذاعة ردد ما قاله بعض المفسرين من أن العجل كان عجلا ذا لحم ودم .

ونحن اذ ننشر المقال نشكر للأخ الفاضل يوسف محمد سليمان رئيس فرع الجماعة بأسوان ما بذله ويبذله من جهد فى سبيل اعلاء كلمة التوحيد .

التحرير

قد أتى على المصريين القدامى حين من الدهر صرفهم فيه الكهنة عن التوحيد ، ووجهوهم الى عبادة الأوثان لأنهم كانوا يجنون من وراء ذلك أرباحا طائلة ، وثروات ضخمة .

وكان مما عبدوه فى تلك الأحقاب : العجل « أبيس » وهو عجل يمتاز بصفات نادرة تجعل الحصول على مثله أعسر الأمور .

وقد برعوا فى الفنون السحرية براعة تتحدى وصف الواصفين ، واعجاب المعجبين ، وأعنى بالفنون السحرية : تلك الضروب من الشعوذة القائمة على أساس من البراعة فى خفية اليد ، وسرعة الحركة ، أو المهارة فى الخداع والتضليل ، أو التعمق فى المعرفة بأسرار القوى الكونية ، والتى لا يكشف الحجاب عن غوامضها الا

العباقرة من العلماء ، أو الرسوخ فى الحقائق العلمية التى تخفى على الدهمـــاء •

وقد تحدى بها فرعون معجزات الســـماء ، حين رأى أن سحرته يسحرون أعين النـــاس ويسترهبونهم ويخيلون اليهم أن الحبـــال والعصى تتحرك ، وتسير وتسعى • ولقد غره ذلك منهم حتى ظن أن فى وسعهم أن يغلبوا موسى عليـــه السلام على أمره ، أو يغضوا مـــن قدر معجزاته ، ولكن الله أفسد كيدهم ، وأبطل سحرهم ، فانقلبوا صاغرين ، وألقى الســـحرة ســـاجدين •

ولقد بلغ من براعتهم فى الفنـــون السحرية : أنهم أقاموا تمثالين عظيمين غربى النيـــل تلقاء مدينة الأقصر وهمـــا تمثالا « ممنون » وجهزوهما بأجهزة علمية دقيقة تعمل بقوة تمدد الهـــواء بالحرارة ، فكانا يصيحان بأصـــوات عالية مدوية كلما أشرقت عليهمـــا الشمس ، وغمرتهما بأشعتهـــا الذهبية •

أقام بنو اسرائيل فى مصر منذ دخلوهـــا فى عصر يوســـف عليه الســـلام ، واتصلوا بالمصريين وتعلموا منهم علومهم ، وعبدوا آلهتهم ، وعكفوا معهم على أصنامهم ، وكان المصريون يسخرونهم فى أشـــق الأعمـــال وأحقرها ، ويكلفونهـــم أشق الصـــناعات وأحطها • ولمـــا جـــاء موسى عليه الســـلام لينقذهم ـــ بأمر الله ـــ من ظلم فرعون وطغيانه وعسفه ، وجبروته وبطشه ، وواعدهم ليـــلة يخرجون فيهـــا جميعا من هـــذه البلاد الى فضاء الحريـــة الفسيح ، واحتالت كـــل امرأة منهم على جارتهـــا المصرية وطلبت منها حليهـــا لتتحلى بـــه ، فلم يبخلن عنهـــن بشىء ممـــا طلبن •

ـــ ٢ ـــ

سار موسى وقومه ، مشرقين مولين وجوههم شطر طور سيناء ، وعلم فرعـــون بخروجهم فأسرع فى حشـــــد جنوده ، وســـار فى أثر بنى اسرائيل يريد أن يعيدهم ، لما يترتب على خروجهم من اضـــطراب

الأعمال فى معاملهم ومصانعهم ومزارعهم فأدركهم عند شاطىء البحر ، فأمر الله موسى أن يضرب البحر بعصاه ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، فسار موسى وقومه فى طريقهم ، وتبعهم فرعون وجنوده ، ولكن البحر بعد خروج موسى وقومه أطبق على فرعون وجنوده فكانوا من الهالكين .

— ٣ —

واعد لله — جلت قدرته — موسى أربعين ليلة ، يلقى عليه فيها التوراة . فترك قومه لأخيه هارون يرعاهم ويأمرهم وينهاهم ، ولم يكد موسى يفارقهم لميقات ربه حتى تحركت الوثنية فى نفس رجل منهم يقال له : السامرى ، فطفق يذكرهم بمعبودهم الذى تركوه فى مصر ، وهو العجل « أبيس » ولم يكونوا أقل منه تشبثا بالوثنية ، فانهم بعد أن جاز بهم موسى عليه السلام البحر أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم . فقالوا : يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ، فصادف اغراء السامرى لهم هوى فى نفوسهم فحنت الى عبادته ، وكان السامرى رجلا صواغا ، فطلب اليهم أن يعطوه ما أخذوا من زينة القوم ليصوغ لهم تمثالا للعجل يعبدونه ، فأجابوه الى ما طلب ، فصاغ لهم تمثالا للعجل جهزه بجهاز خاص يتوصل به الى احداث صوت كخوار العجل وابرزه لهم قائلا : هذا الهكم واله موسى ، ولكن موسى نسى وذهب يلتمسه فى موضع آخر .

— ٤ —

أخبر الله تعالى موسى عليه السلام بما كان من فتنة قومه ، واضلال السامرى لهم ، وارتدادهم الى عبادة العجل ، فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا . فقال : بئسما خلفتمونى من بعدى ! أفطال عليكم العهد ، أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ؟ وأقبل على هارون وأخذ برأسه اليه ويقول :

يا هارون ما منعك ، اذ رأيتهم ضلوا . ألا تتبعن ؟ أفعصيت أمرى ؟

قال : يابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى • لقد قلت لهم من قبل : يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى • قالوا : لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينـا موسى والتفت موسى الى السامرى وقال له : ما خطبك يا سـامرى ؟ قال : انى أدركت ببصيرتى ما لم يدركوا ، وفطنت الى ما لم يفطنوا له • فحين رأيتك تدعوهم الى عبادة اله لا تدركه الأبصار ولا تلمسه الأيدى ، وهم لم يألفوا ذلك من قبل ، وكان ذلك سيصرفهم عن العبادة ، نبذت هـذا الجزء من تعليمك ، وأخرجت لهم هذا الاله حتى يعودوا الى العبادة كما كانوا يفعلون فى مصر ، وكذلك سولت لى نفسى •

فأمر موسى عليه السلام بمقاطعة السـامرى مقاطعة تامة ، حتى لا يتمادى فى اضلالهم ثم حرق الاله الزائف ، ونسفه فى اليم نسـفا بين سمعهم وأبصـارهم •

— ٥ —

هذه هى قصة السـامرى • كما تفهم من نصـوص القـرآن الكريم ومن طبائع الأشياء ومن سنن الله التى لا تتبدل ولا تتحـول • ولكن المفسرين نقلوا ما دسه المنافقون الأولون مـن اليهـود الذين أسلموا ليفسدوا عقائد المسـلمين •

قال المفسرون : ان السامرى رأى جبريل وهـو قادم لدعـوة موسى لمناجاة ربه ، وكان يمتطى فرسا ، فأخذ قبضة مـن التراب الذى وطئته أقدام هذه الفرس ، ووضعها فى الذهب المنصهر فسرت فيه الحياة • فلما صاغ منه عجلا ، كان عجلا حيا ذا لحـم ودم • هكذا قالوا • وبئسما قالوا !! ان نص القـرآن الصريح يخـالف الذى قالوا •

ان القرآن لم يترك كلمة عجل بغير تعقيب بل عقب عليهـا بقوله (جسدا له خوار) فدل هذا التعقيب على أن العجل لم يكن عجلا حقيقة ، وأنه لم تكن فيه حياة ، وانما هو جسد بغير روح ،

لأن العجل الحقيقى جسد وروح ، وهذا الذى أخرجه السامرى جسد فقط له صـــوت كخـــوار البقـــر •

لا يمكن أن يكون ما قال المفسرون صحيحا ، اذ لو كان صحيحا لكان الســـامرى خالقا لأنه أوجد كائنا حيا ذا روح ولحم ودم ، والخلق من خصائص رب العالمين جل شأنه • وقد نفى الله سبحانه الألوهية عن سواه بعدم القدرة على الخـــلق فقال تعالى (أفمـــن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون) ١٧ : النحل •

وقال تعالى (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون) ٢٠ النحل • وقال تعالى (قل أفرأيتم ما تدعـــون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟) ٤ الأحقاف • وقال تعالى (هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ؟ بل الظالمون فى ضـــلال مبـــين) ١١ : لقمان •

لقد كان من الممكن أن يتتبع الســـامرى سير الفرس ، ويجمع كل التراب الذى وطئته حوافرهـــا ويحتفظ به ليضع ذرات منـــه على كل ما يريد صنعه مـــن الذهب أو الفضـــة أو الرصـــاص أو الحديد أو الطين أو الصلصال ليخلق حيوانا أو طيرا أو انســـانا ثم يدعى الألوهية أو الرسالة وسيتحدى من ينكر ألوهيته أو رسالته بقدرته على الخلق والايجاد ، ويرى ذلك آيته البينة ومعجزته التى لا تنكر •

ان القول بما يقول المفسرون يكون سبيلا الى القدح فى نبوة موسى عليه السلام ، اذ يطوع للقائلين أن يقولوا : اذا كان هـــذا الكافر قد وقف على هذا السر مع كفره وأتى بهذا الخارق العجيب ، أفلا يكون موسى قد وقف على سر أعظم من هذا السر وأتى بفضله بما أتى به من الخوارق والمعجزات ؟

ولماذا اختص الســـامرى وحـــده برؤية جبريل دون ســـائر بنى اسرائيل ؟ وهو رائد قومه الى الشرك البغيض ؟

وما حاجة جبريل الى امتطاء الفرس حين يهبط بالوحى على الرسل والأنبياء ؟ وكيف عرف السامرى أن أثر حافر فرس جبريل يؤثر هذا التأثير العجيب وهو قلب الجماد حيوانا ذا لحم ودم ؟

واذا جاز — فى نظر المفسرين — أن يقدر مضافان فى قوله تعالى (فقبضت قبضة من أثر الرسول) أى قبضت قبضة من أثر حافر فرس الرسول ، فلم لا يجوز أن يقدر مضاف واحد فى قوله : فأخرج لهم عجلا ، أى صورة عجل وهو بالبلاغة أليق ؟

الحق أن أثر الرسول هو تعليم موسى ، والرسول هو موسى عليه السلام ، والقبضة من أثره هو الجزء من تعليمه الذى لم يعجب السامرى وهو الدعوة الى عبادة اله لا تدركه الأبصار .

— ٦ —

ومن عجب أن المفسرين يستدلون باسرائيليات يسمونها أحاديث ويضعون لها أسانيد . من ذلك ما أخرجه ابن مرديه عن كعب بن مالك عن النبى ﷺ — فيما زعموا — « أن الله تعالى لما واعد موسى عليه السلام أن يكلمه خرج للوقت الذى واعده ، فبينما هو يناجى ربه اذ سمع خلفه صوتا فقال : الهى انى أسمع خلفى صوتا قال : لعل قومك قد ضلوا . قال : الهى من أضلهم ؟ قال : أضلهم السامرى ! قال فبم أضلهم ؟ قال : صاغ لهم عجلا جسدا له خوار . قال : الهى هذا السامرى صاغ لهم العجل . فمن نفخ فيه الروح حتى صار له خوار ؟ قال : أنا يا موسى !! قال : فوعزتك ما أضل قومى أحد غيرك !! قال صدقت يا أحكم الحكماء ، لا ينبغى لحكيم أن يكون أحكم منك » .

وفى رواية أخرى عن راشد بن سعد — فيما زعموا — أنه سبحانه قال : يا موسى ان قومك قد افتتنوا من بعدك قال : يارب كيف يفتنون وقد نجيتهم من فرعون ، ونجيتهم من البحر وأنعمت عليهم وفعلت بهم ؟ قال : يا موسى انهم اتخذوا من بعدك عجلا

له خوار • قال : يارب فمن جعل فيـــه الروح ؟ قال : أنا • قال : فأنت يارب أضللتهم • قال : يا موسى يا رأس النبيين ، ويا أبا الحكماء انى رأيت ذلك !!! •

هذا كلام ــ بل ظلام ــ لا يمكن أن يخرج من مشكاة النبوة هو أقرب الى أن يكون قول يهـودى زنديق يريد أن يفســـد على المســـلمين عقائدهم •

هـــذا قول لا يحـــل لمســـلم أن يقوله •

والحق أحق أن يتبع • وليس بعد الحق الا الباطل • وليس بعد الهدى الا الضلال • والسلام على من اتبع الهدى •

أبو الوفاء محمد درويش

رحمه الله

بقلم

فضيلة الأستاذ الشيخ

أبي الوفاء محمد درويش المحامي

أنصار السنة

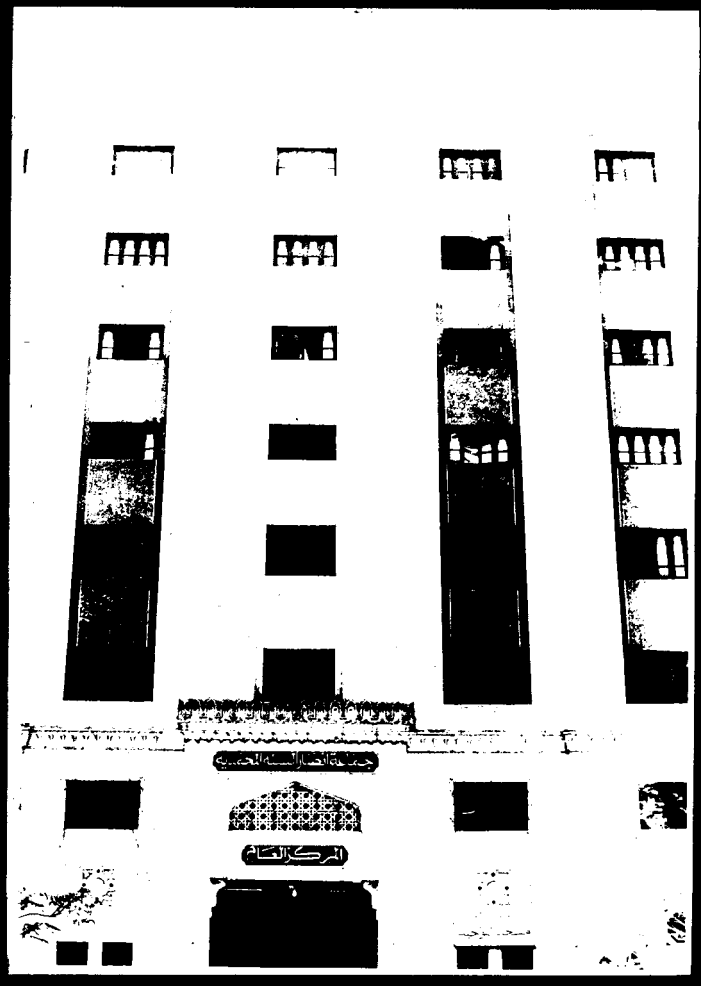

جماعة نصبوا أنفسهم لإحياء سنة رسول الله ﷺ ومحاربة البدع ومحدثات الأمور، ودحض الأباطيل والأوهام والخرافات والترهات، التي لا تمتُّ بسبب إلى الدين، ولا إلى العقل، ولا إلى العلم؛ والدعوة إلى الاستمساك بالدين الخالص. كما جاء في كتاب الله وكما بينه رسول الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ ووطنوا أنفسهم على احتمال ما يلقون في هذه السبيل من عنت المتعنتين، وتعصب الجاهلين، وكبرياء المستكبرين، وخصومة الجامدين.

وكانوا هم الروَّاد الأولين الذين شقُّوا هذا الطريق الموحش المخفوف بالأهوال ، المملوء بالمخاوف والأخطار ، ليمهدوه لمن بعدهم من المصلحين ، حتى إذا نهض من بعدهم داعية إلى الحق ، وجد السبيل ميسرة ، والنهج واضحًا .

ولقد كانت مهمتهم أول الأمر عسيرة شاقة يضيق بها الذرع ، ويعجز عنها الاحتمال ، فلقد سلطت عليهم الألسنة الحداد السليطة ، والأقلام المسمومة البذيئة . تنهش أعراضهم ، وترميهم بالزندقة والمروق ، والكفر والفسوق ، ودبت إليهم عقارب الوشاية والسعاية والوقيعة ، وتألفت الوفود من العلماء والأئمة والأعيان ، والمحامين والأطباء والتجار وغيرهم ، تسعى بهم إلى الحاكمين ، وترميهم بغيًا وعدوًا بما هم منه براء ، وكتبت الشكاوى والعرائض وأرسلت إلى مختلف الجهات التي يظن أنها تستطيع إلحاق الضرر بهم ، وتسليط الأذى عليهم .

ولكنهم صبروا وصابروا . واصطنعوا الحلم والأناة ، واتبعوا الدستور الإلهي في الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن ، فكتب الله لهم النصر على من ناوأهم ، وضربوا من كل هذه المحن والخطوب ، مرفوعي الهامات لم يصبهم قرح ، ولم يمسسهم سوء ، وأقام الله تعالى منهم برهانًا ناصعًا ، ودليلًا قاطعًا ، على صدق قوله : ﴿ وَلَينصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيز ﴾ [الحج : ٤٠] .

وكان العلماء الذين يعرفون الحق يكتمونه حذرًا وتقيَّة وإيثارًا للعاقبة . وإذا سألهم سائل عن رأيهم فيما يقول أنصار السنة يغمغمون بالجواب ، ويدورون حوله ، ولا ينطقون به خالصًا صريحًا حتى لا يمسهم أذى العامة ، ولا تلوكهم ألسنتهم .

وما زال أنصار السنة يسيرون في طريقهم تحدوهم الثقة بوعد الله ، ويحفزهم الأمل في نصره وتأييده ، ويصحبهم توفيق الله وعونه حتى أصابوا الكثير من أهدافهم ، وحققوا جل آمالهم ، فأصبح العلماء يصدعون بالحقائق التي كانوا يكتمونها ، ويجهرون بها في خطبهم فوق المنابر ، ويذيعونها من وراء الإذاعة ، ويكتبونها في الصحف والمجلات ، ويجيبون السائلين عنها في صراحة ووضوح . وكتب الله لدعوة الحق أن

يعلو صوتها ، وأن تتجاوب الأصداء بها في الأقطار الإسلامية كلها . وأصبح الأئمة يقفون في قراءتهم في الصلوات على رءوس الآي بعد أن كانوا يتنافسون في قراءة الفاتحة في نفس واحد ، وصاروا يطمئنون في ركوعهم إذا ركعوا ، وسجودهم إذا سجدوا ، وينادون بتحريم النذر لغير الله ، وشد الرحال لغير المساجد الثلاثة ، والتوسل بغير العمل الصالح ، وينهون عن دعاء الأولياء والهتاف بأسمائهم ، وذبح الذبائح لهم ، وسير المواكب إلى قبورهم ، إلى غير ذلك مما يدعو إليه أنصار السنة .

وصار المثقفون والناشئون من طلبة المعاهد الدينية ، والمدنية ، وشباب العلماء ، وبعض شيوخهم الموفقين يدينون بمبادىء أنصار السنة ، ويعتنقونها ، ويدعون جهرة إليها ، وبذلك صاروا من أنصار السنة ومن الدعاة إلى مبادئهم ، وإن لم تدون أسماؤهم في دفاتر الجماعة ، وإن لم يسهموا في نفقاتها ، وإن تأييدهم لمبادىء الجماعة لخير ألف مرة من إسهامهم بالمادة واشتراكهم بالمال الذي لا يراد إلا للاستعانة به في بث دعوة الحق ، والدفاع عن دين الله .

﴿ وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

فضل أهل بدر

البخاري : من حديث غزوة الفتح . وما بعث به حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة يخبرهم بغزو النبي ﷺ لهم لفتح مكة . وفيه يا حاطب ما هذا ؟ قال يا رسول الله لا تعجل عليّ إني كنت امرءًا ملصقًا في قريش . ولم أكن من أنفسها . وكان من معك من المهاجرين مَنْ لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم . فأحببت إن فاتني ذلك من النسب فيهم . أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي . ولم أفعله ارتدادًا عن ديني ولا رضًى بالكفر بعد الإسلام : فقال ﷺ : « إما إنه قد صدقكم » ، فقال عمر رضي الله عنه : دعني أضرب عنق هذا المنافق . فقال ﷺ : « أما أنه قد شهد بدرًا وما يدريك لعلّ الله اطلع على مَنْ شهد بدرًا فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

مع الصادقين

للأستاذ الكبير أبي الوفاء محمد درويش (رحمه الله)

« يا رسول الله ؛ إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر . لقد أوتيت جدلا . ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ، ليوشكن الله أن يسخطك عليّ ، وإن حدثتك حديث صدق تجد فيه عليّ ، إني لأرجو فيه عقبى[1] الله عز وجل ، والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك » .

هكذا أجاب كعب بن مالك رسول الله ﷺ حين رجع ﷺ من غزوة العسرة وجلس للناس وجاء المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون ، فقبل منهم علانيتهم ، وبايعهم واستغفر لهم ووكل أسرارهم إلى الله . وجاء كعب ، وسلم على النبي ﷺ فتبسم ﷺ تبسم الغضب ثم قال له « تعال » فجاء يمشي حتى جلس بين يديه ، فقال له : ما خلّفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فرأى رضي الله عنه أن الكذب غير خليق بالمؤمن الصادق الإيمان ؛ القوى اليقين ، وأن الصدق سبيل النجاة في الدنيا والآخرة ؛ وأن الرجل النبيل الشريف الذي يحترم نفسه ويربأ بها عن الدنيات لا يجمل به أن يلوثها بجمأة الكذب ، فاستنصر شجاعته ، واستعان شهامته ، واستجمع قواه ، ولاذ بإيمانه ويقينه ، وأرسله اعترافاً صريحاً كله شجاعة وكله صدق ، وكله إيمان .

فيا لروعة الحق ! ويا لجمال الصدق ! ويا لقوة الإيمان !

ولعلك تريد أن تعرف حقيقة الصدق ، حتى لا يلتبس عليك الأمر ، ولا يختلط عليك بألوان من الكذب يبرجها الشيطان بزينة الصدق ؛ فتخفى على الغافلين عن خدعه ومكايده :

الصدق هو الإخبار عن الشيء على ما هو عليه بغير زيادة عليه ولا نقص منه أو هو أن تخبر بما تعتقد اعتقاداً حازماً قائمًا على أساس صحيح أنه الحق ، أو هو أن تقول الحق كله وألا تقول شيئاً غيره .

وهذه هي الحدود التي تحدد الصدق وتميزه من غيره فيما أرى ولعل بعضها أوضح من بعد . ولكنها لا تدع للكذب مدخلاً إليه .

فمن أخبر عن شيء بغير ما هو عليه في واقع الأمر ؛ بل زاد عليه أو نقصه منه أو غيره . فهو كاذب . ومن أخبر بغير ما يعتقد أنه الحق فهو كاذب . ومن أخبر بما يعتقد أنه الحق ، ولكن اعتقاده لا يستند إلى حجة صحيحة ، ولا بينة مقنعة فهو كاذب كان

الكفار والمشركون يخبرون بما يعتقدون أنه الحق طوعاً للعقيدة العامة ؛ واتباعاً للآباء والأجداد ؛ وجريا مع البيئة التي نشئوا فيها . ولم يكن اعتقادهم مبنياً على أساس صحيح ، وكان أدنى تأمل يكفي لهدمه ، وأقل إعمال للعقل يقوضه ، ويذهب به . ولهذا اعتبرهم الله كاذبين وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ .

شاع بين الناس تعريف للصدق وهو قولهم : الصدق أن تقول ما تعتقد أنه الحق . ولا أرى هذا التعريف مانعاً ، كما يقول أصحاب المنطق – لأنه يدخل في الصدق ألواناً عدة من الكذب .

ولأضرب لك أمثلة تعينك على الوقوف على حقيقة الصدق ، وتميزه لك من الكذب في سهولة ويسر .

من قال لك : إن في العبادة بدعة حسنة فهو كاذب ، وإن كان يعتقد ذلك لأن اعتقاده باطل لا يقوم على بينة ، ولا يستند إلى نص من كتاب الله ؛ ولا سنة صحيحة عن رسوله ﷺ . بل النصوص تثبت أن كل بدعة في الدين : في العقيدة ، أو العبادة . فهي ضلالة .

ومن قال لك : إن آدم عليه السلام توسل بمحمد ﷺ يوم عهد الله إليه فنسي فهو كاذب . وإن كان يعتقد ذلك ، لأن اعتقاده ليس له سند صحيح ، وأدنى شيء من البحث المقرون بالحرص على الحق بهدم هذا الاعتقاد ، فإن القرآن الكريم جاء بنص صريح لا غموض فيه ولا إبهام يدل على أن آدم وزوجه توسلا إلى الله بتوبتهما واعترافهما بخطئهما وظلمهما لأنفسهما والتجائهما إلى مغفرة الله ورحمته قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وقال تعالى في سورة الأعراف مفسراً هذه الكلمات : ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

ومن قال لك : إن جماعة أنصار السنة المحمدية يحرمون الصلاة على النبي ﷺ فهو كاذب مفتر ، لأن جماعة أنصار السنة لا يحرمون عبادة أمر الله تعالى بها في كتابه الكريم . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلَآئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ولكنهم يدعون إلى الاستمساك بسنة رسول الله ﷺ ويؤذنون الأذان الشرعي الذي شرعه الله ورسوله . والذي كان ينادى به بلال وابن أم مكتوم في حضرة رسول الله وأصحابه ، وينادى به من بعد بلال وابن أم مكتوم أولئك الذين كانوا يتفانون في حب رسول الله . ويتحملون أشد ألوان العذاب والأذى في حب رسول الله . فهم بلا شك أعرف برسول الله . وأحرص على مرضاة الله من مؤذني زماننا المتلاعبين بدين الله الذين لا يستطيعون أن يقيموا دليلاً واحداً على حب رسول الله . فجماعة أنصار السنة لا يزيدون على أذان بلال شيئاً ؛ ويقفون عند الحدود الشرعية التي أمر الله أن نقف عندها ولا نتعداها . فمن يسول له الشيطان أن يقلب الحقيقة ويحرّف الكلم عن مواضعه فهو من الكاذبين .

الصدق واجب لذاته ، فيجب أن نحرص عليه الحرص كله في شأننا كله ، لا في الأقوال فحسب . بل في الأفعال أيضاً . فالأفعال التي تجافى الحقيقة كذب . فالرياء كذب ، والنفاق كذب ؛ والغش كذب ؛ والتدليس كذب . والإشارات التي تواضعنا على أن نجعلها تدل على معان خاصة كحركات اليد والرأس الدالة على النفى أو الإثبات كذب إن دللنا بها على غير الحق .

والصمت قد يكون كذبا إن دل على غير الحقيقة . فمن سمع الناس يحمدونه بما لم يفعل فسكت فهو كذب ؛ لأن سكوته يفسر بقوله : نعم ، إني فعلت ما تسندون إلى ، وما تثنون من أجله علىَّ ، ولا جرم أن هذا كذب إن كان لم يفعل شيئاً ومن سمع الناس يذمون غيره لسيئه لم يقترفها وهو يعلم أنه بريء فسكت ولم يدرأ عنه فهو

كاذب .

الصدق واجب لأنه فضيلة تقوم عليها المعاملات كلها ، ويتوقف عليها نظام الجماعة الإنسانية .

نظام الجماعة الإنسانية يقضى بوجود التفاهم بين الناس . فتصور حال هذه الجماعة لو أن كل امريء جانب الصدق فيما يقول ، وخالف الحق فيما يخبر .

تصور حال هذا المجتمع البشري لو كذب الآباء على الأبناء ، وكذب الأبناء على الآباء ، وكذب الإخوة والأخوات بعضهم على بعض ، ماذا يبقى بينهم من روابط القربى ، وأواصر الود والتعاون ؟

مثل لنفسك حال مجتمع يكذب فيه المعلمون على المتعلمين ، أكان الناس يصلون فيه إلى علم صحيح ؟ أكانت علوم السلف قد وصلت إلى الخلف ؟ أكانت الحقائق العلمية قد وصلت إلى الناس ، إلا ما وقفوا عليه بتجاربهم الشخصية ، وما أقلها ؟!

مثل لنفسك حال مجتمع يكذب فيه الأطباء على المرضى في تشخيص الأمراض وفي وصف الأدوية . ويكذب فيه التجار والصناع والزراع ؛ أكان يتم بينهم تعامل ؟ أكان يتم بينهم تعاون ؟ أكانت تدوم لهم رابطة ؟ أكان يبقى لهم اجتماع ؟

لقد أدرك زياد ضرورة الصدق وبشاعة الكذب وخاصة من الحاكمين فأراد أن يحمل رعاياه على الصدق ، وضرب لهم من نفسه مثلا ، وصرح في بعض خطبه هذا التصريح الجريء « إن كذبه الأمير بلقاء مشهورة ، فمن تمسك علىّ بكذبة فقد حلت له معصيتي » .

أوجب ما يكون الصدق في البيت بين الأهل والولد ، حتى يثق أفراد الأسرة بعضهم ببعض .

وما أكثر ما سمعت وقرأت : أن كذب الرجل على امرأته جائز على الإطلاق وفي كل الأحوال ، لا إثم فيه . وهذا القول هو الإثم بعينه ، ومحال أن يعمد الصادق المصدوق ﷺ إلى هذا ، وهو أشد المحاربين للكذب في كل صوره ، وهو الذي يتلو آيات الصدق والصادقين . إن هذا الكذب من شر الجرائم وأشنع الآثام ، لأنه إذا تكرر يمحق ثقة المرأة بزوجها ويجعله في نظرها كذابا لا يوثق بقوله ، ويجعلها تستبيح لنفسها أن تكذب عليه كما كذب عليها . وويل للأبناء الذين ينشأون ويتربون في أحضان أبوين كاذبين .

وإذا كانت كل أسرة تصنع هذا الصنيع أصبحت الأسر ينابيع للأكاذيب ، والبيوت مكامن للجرائم والآثام ، فيفسد الأبناء بفساد الآباء ، ويقتدى المولود بالوالد ، ويسوء المصير .

يجب أن نحارب مبدأ الكذب الأثيم . يجب أن نجعل الصدق شعارنا في كل شئوننا . يجب أن يكون

- فمن أخبر عن شيء بغير ما هو عليه في واقع الأمر ، بل زاد عليه أو نقصه منه أو غيره فهو كاذب . ومن أخبر بغير ما يعتقد أنه الحق ولكن اعتقاده لا يستند إلى حجة صحيحة ولا بينة مقنعة فهو كاذب .

- شاع بين الناس تعريف للصدق وهو قولهم : الصدق أن تقول ما تعتقد أنه الحق ولا أرى هذا التعريف مانعاً ، لأنه يدخل في الصدق ألواناً عدة من الكذب .

الصدق رائد الآباء والأمهات والأبناء جميعاً .

يقول تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالمَعْرُوف وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَة ﴾ فإن كان على المرأة أن تصدق أكاذيب زوجها ، فلها أن يصدق زوجها أكاذيبها ؛ وإذاً ينقلب البيت جحيما يرمي بشرر الكذب ويصلى الزوجان والأبناء جميعا سعيره في كل حين .

أم يرون الدرجة التي للرجال على النساء هي أن يباح لهم الكذب دونهن ؟ ومتى كانت الرذيلة درجة يرفع الله إليها الرجال ؟ والكذب رأس الرذائل كلها ؛ إنما هذه الدرجة هي قوامة الرجل على المرأة بالحق والصدق والفضيلة والرحمة والمودة .

الصدق إذا أصبح خلقا للرجل خلق منه بطلا صنديداً .

يالبطولة الصدق ! ألست بطلا يوم تصدق ؛ وأنت تعتقد أن الصدق ربما جر عليك ويلات ، وأن الكذب بما ينجيك من هلكات ، وتأبى مع ذلك إلا أن تستمسك بأهداب الصدق ؛ ولو جلب عليك ما جلب ؟ لا جرم أن هذه بطولة .

لا جرم أن هذه تضحية في سبيل الحق والفضيلة ، وهي مرتبة الصديقين ؛ ولذلك يقول رسول الله ﷺ « وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً » .

الصادق شجاع لأنه لا يخشى في الحق لومة لائم ، والكاذب جبان ، لأنه يخشى الناس فيتخذ الكذب جُنة ؛ ولكنه جنة العائذ بها معور ، فلا تغنى عنه شيئاً ، ولا ترد عنه ما يجر عليه الكذب من نكبات .

الصدق رأس الفضائل كلها .

ألم يأتكم نبأ ذلكم الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ ليبايعه على الإسلام ، واعتراف له بأنه يستسر برذائل ؛ لا يستطيع أن يتركها جميعاً ، وأنه يملك أن يترك واحدة منها ؛ فأيها شاء النبي أن يتركها الرجل تركها له . فقال له ﷺ عليك بترك الكذب ، فانصرف الرجل وهو مغتبط مسرور يقول : ما أهون ما طلب إلى هذا النبي الكريم ، ولكنه لم يلبث أن ترك الرذائل كلها بفضل الصدق الذي أخذ على عاتقه أن يلازمه في كل شئونه وأطواره .

ولي همسة في آذانكم معشر أنصار السنة :

يجب أن يكون الصدق شعارنا دائما في جليل الأمر ودقيقه . يجب ألا نسمح لألسنتنا أن يجرى الكذب على أسلاتها . يجب أن نصدق الله والناس ؛ يجب أن نصدق ما عاهدنا الله عليه حتى نستمتع ببركة الصدق التي استمتع بها كعب بن مالك الذي بدأنا ، به هذا الحديث ، حين تاب الله عليه بفضل الصدق ، وأنزل في شأنه قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِين خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِم الْأَرْض بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِم أَنفُسهم وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِم لِيَتُوبُوا إِن اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيم – يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

وفقنا الله تعالى لأن نكون مع الصادقين بواسع رحمته وعظيم فضله آمين .

أبو الوفاء محمد درويش

عَنْ أُمِّ المؤمنينَ جُوَيْرِيَةَ بنتِ الحَارِثِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رسول الله ﷺ خرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا ، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحى وَهِي جَالِسَةٌ فقال : « مَازِلْتِ على الحَال الَّتي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا ؟ » قَالَتْ : نَعَمْ : فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

لا يكون الشرك إلا مع الإيمان !!

بقلم فضيلة الأستاذ / الشيخ **أبي الوفاء محمد درويش** المحامي
رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية بسوهاج

قد يكون هذا العنوان غريبًا أو غير مستساغ ، وقد يقع عند بعض القراء موقع العجب ، وقد تملكهم الدهشة أو الاستنكار إذا هم اطلعوا عليه ، ولكنه مع ذلك كله صحيح لا خطأ فيه ، وحق لا يطير الباطل بجنباته ، وواقع لا يمت إلى الوهم بأوهى صلة .

✪ لا يكون الشرك إلا مع الإيمان !

أي وربي إنه لحق ، فمن أنكر وجود اللّه رأسًا لا يسمى مشركًا ؛ لأنه لا يعترف بإله يشرك معه غيره في العبادة .

أما من اعتقد بوجود اللّه ، واعتقد أن معه آلهة أخرى ، تشاركه في ملكه ، أو تعينه على أمره ، أو تشفع عنده بغير إذنه ، فذلك هو المشرك ، لأنه آمن باللّه وجعل غيره شريكًا له في بعض صفات الألوهية .

وكان المشركون من الأمة العربية في الجاهلية يؤمنون باللّه تعالى ، ويخصونه باسم (اللّه) ، ويسندون إليه الخلق ، والرزق ، والإحياء ، والإماتة ، وتدبير الأمر ؛ لأنهم كانوا على بقايا من ملة إبراهيم ، وإنما جاء شركهم من قبل أنهم كانوا يعبدون معه آلهة أخرى ابتدعوها . ولم يكونوا يسمون أحدًا منها باسمه تعالى (اللّه) ، وإنما يطلقون على كل منهما كلمة (إله) ، ولذلك جعل اللّه شعار الإسلام : ((لا إله إلا اللّه)) ، أي : إن اللّه الذي تؤمنون به ، وتقرون بوجوده ، وتسندون إليه الخلق والأمر ، هو وحده الإله ، وليس هناك إله آخر خليق بهذا الاسم .

حين دعاهم القرآن إلى توحيد اللّه أقام الحجة عليهم من عقيدتهم هذه . قال تعالى : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ* فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢] .

فهاهم أولاء يقرون بوجود اللّه تعالى ، ويسندون إليه الخلق والأمر ، ولذلك اتخذ القرآن هذه العقيدة حجة عليهم تقنعهم بأن اللّه الذي يملك كل شيء هو ربهم الحق . أما ما سواه فباطل وعبادته ضلال .

وكذلك قال تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت : ٦١] .

فأنت ترى أنهم يعتقدون اعتقادًا جازمًا لا يسمو إليه الشك أن اللّه هو الذي خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ، ولا ينسبون إلى غيره تعالى شيئًا من صفات الربوبية التي يسندونها إلى رب العزة جل شأنه .

سُئل أعرابي : كم إلهًا تعبد ؟ فقال : سبعة : واحدًا في السماء ، وستة في الأرض ! فقيل له : فمن الذي يخلق ويرزق ويحيي ويميت ؟ فقال : اللّه إله السماء . قيل : فما بال آلهة الأرض ؟ قال : تلك تشفع لي عنده ، وتقربني إليه زلفى !

وليس من شك في أن آلهة الأرض هذه التي كانوا يعبدونها من دون اللّه هي التي شرعت البدع لهم عبادتها فاستجابوا لها .

جاء الإسلام بآياته البينات ، وحججه القاطعات ، فقضى على كل هذه الأباطيل والترهات ، قال تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٥٦] ، وقال تعالى : ﴿قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ : ٢٢، ٢٣] .

ويقيني أن القارئ الكريم قد استيقن صحة العنوان وعرف أن الشرك لا يكون إلا مع الإيمان ، وما يؤمن أكثرهم باللّه إلا وهم مشركون .

استجاب العرب لدعوة القرآن الكريم فخلعوا الأنداد ، ونبذوا آلهتهم الزائفة التي كانوا يدعونها من دون اللّه ، وحطموها تحطيمًا ، وداسوها بنعالهم ، وأصبحوا يرفعون علم التوحيد الخالص ، ويدعون إليه دعوة صريحة جريئة

ولم تكد القرون الخيرة تنسلخ حتى نجمت نواجم الفتن واندس المنافقون من اليهود في صفوف المسلمين يحاولون أن يفسدوا عليهم عقائدهم ، وزينوا في قلوب المتصوفة أن يبرزوا قبور شيوخهم ، وأن يرتادوها للذكر والعبادة ، فسارع الغافلون إلى الاستجابة لهم ، وبذلك نشأت عبادة القبور ، وعادت الجاهلية سيرتها الأولى مع اختلاف الأسماء ، إذ سموا معبوداتهم أولياء ولم يسموها آلهة وإن كانوا يدعونها ، ويستشفعون بها ، وينذرون لها كما كان يفعل الجاهليون .

وسرت سموم هذه العدوى من المتصوفة إلى غيرهم ولم يسلم منها إلا من عصمه اللّه، وقليل ما هم .

غير أن الإيمان الذي يلابسه الشرك لا يغني عن صاحبه فتيلا ؛ لأن الشرك يمحقه ، ويذهب بثمرته ، وبذلك يصبح المشرك كافرًا ، لأنه ينكر أخص صفة من صفاته تعالى وهي صفة (الوحدانية) ، والتفرد بالملك والملكوت . وإنكار صفاته تعالى كفر بواح ، يفضي بصاحبه إلى الجحيم ، ويسلكه في زمرة الهالكين .

ومن حجة اللّه التي آتاها إبراهيم على قومه قوله تعالى : ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم باللّه ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ .

وقد فسر الرسول ﷺ الظلم هنا بالشرك أخذًا من قوله تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

وخير ما أختم به هذه الكلمة قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٥، ٦٦] .

وصلّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التقـــوى

بقلم الشيخ / أبي الوفاء محمد درويش (رحمه الله)

الحمد للّه ، والصلاة والسلام على رسول اللّه ، ثم أمّا بعد :

فمن عجب أني أفكر في التقوى حين تفكر الدهماء في الحروب وويلاتها وكوارثها وفواجعها ، وما تدمر من مدائن ، وما تجتاح من أقاليم ، وما تفني من أموال ، وما تزهق من أرواح ، وما تهريق من دماء ، وما تكبد من ضحايا ، وما تقلق من ضمائر ، وما ترهق من أعصاب ، وما تفزع من قلوب ، وما تروع من نفوس .

ومن عجب أني أفكر في التقوى حين يفكر الناس في دول دالت ، وعروش ثلت ، وتيجان طارت عن رءوس أصحابها ، وصوالجة طاح بها صولجان القدر ، ودنيا غلت فيها مراجل المطامع فاضطربت كما يضطرب الماء في مهوى سحيق .

ومن عجب أني أفكر في التقوى حين وقفت كل أمة تفكر في مصيرها ، وترتقب ما أُخفي لها في ضمير الغيب ، وما سطر في صحائف القدر ، وهي لا تدري : أتكتب لها الحياة ويقسم لها البقاء ، أم تطوى صحيفتها وتمحى سطورها من سجل الوجود ؟

ومن عجب أني أفكر في التقوى حين وقف الناس جميعًا يفكرون كيف يتقون كوارث الحرب وكيف ينجون من شرها وبلائها : يعدون الكمائم للغازات ، والمخابئ للغارات ، والمدافع للطائرات ، ويستعدون لاتقاء الموت النازل من السماء ، أو السابح في الماء أو الطائر في الهواء ، أو الماخر أجواز الدأماء ، أو المختال في أكناف البيداء .

ومن عجب أني أفكر في التقوى ، والشعوب جميعًا تفكر في البندقيات والمدافع والرشاشات والدبابات والمطاود والطائرات والحصون والمعاقل والمصانع والطرادات والناسفات والنقالات والمدمرات والغواصات ، وما لا يعلم إلا اللّه من وسائل التدمير والتخريب ، وعدد العدوان والطغيان .

وما يدريك لعل الحرب هي التي أثارت في نفسي حديث التقوى ، وأغرت قلمي بالكتابة فيه .

وما يدريك لعل ما أحسسته ورأيته من تقوى الحرب في كل مكان هو الذي أهاب بي ودفعني إلى أن أكتب في تقوى اللّه .

اللّه حق ، ووعده حق ، ووعيده حق ، والنار حق ، ومقامعها حق ، وسلاسلها وأغلالها حق ، وزقومها وغسلينها حق ، وعذابها الذي يتضاءل دونه كل ما سمعت به من أهوال الحرب حق .

ووقوع الحرب في ديارنا لا يزال في مكان الشك من نفوسنا ، وهبه ارتقى إلى موضع الظن ، بل هبه تسامى إلى درجة اليقين فكان حقًا ، فما بالنا نؤثر

حقًا على حق ؟ ما بالنا نؤثر حقًا - مهما تعظم كوارثه ، وتشتد البلوى فيه فإن بقاءها قليل ، ومصيرها إلى تحول وزوال، على حق إذا نزل بنا فلا مرد له وما لنا منه من محيص ؟

أنتقي حرب الناس ولا نتقي حرب اللَّه ، ونخشى الإنسان واللَّه أحق أن نخشاه ؟

ماذا كلفت الأمم تقوى الحرب ؟

كم أعدوا من كمائم لاتقاء سموم الغازات ، وكم هيئوا من مخابئ لاتقاء شرور الغارات ، وكم اعتصروا دماء الشعوب ، وحرموا على الناس ثمرات أعمالهم ، حتى إذا ظفروا بهذا الذهب المعتصر من قلوب العمال وأكبادهم أحالوه حديدًا ونارًا لإزهاق أرواح الأبرياء ، أو لصد عدوان الأشرار الأشقياء .

كم أنفقوا من أموال لا يحصيها العد ، وكم سهدوا الجفون وأرقوا العيون ، وكم حرموا من متاع ، وكم خاضوا في أعماق الظلمات .

أما الأمم الضعيفة التي لا قبل لها بمقاومة العدو القوي ، فقد ألقت بأيديها ، واستسلمت واستكانت وآمنت بأن الصلح خير .

أعلن اللَّه الحرب على تاركي الصلاة ، ومانعي الزكاة ، والمفطرين في شهر رمضان ، والقاعدين عن الحج مع استطاعتهم السبيل إليه ، وهم ضعاف لا حول لهم ولا قوة ، ولا طاقة لهم بحرب اللَّه تعالى ، فهل فكروا في صلح يكفون به عن أنفسهم لهيب النار ، ويسلمون به من غضب الجبار وانتقام القهار ؟

لو لم يطالبنا اللَّه بالتقوى لطالبنا بها العقل ، ولو لم ينبهنا اللَّه إليها لدعانا إليها الحزم والنظر في عواقب الأمور ، ولكن اللَّه تعالى دعا إليها في كثير من آيات كتابه الكريم ، قال تعالى : ﴿ واتقوا اللَّه واعلموا أن اللَّه شديد العقاب ﴾ [البقرة : ١٩٦] .

وقال تعالى : ﴿ واتقون يا أولي الألباب ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

وقال تعالى : ﴿ واتقوا اللَّه واعلموا أن اللَّه بكل شيء عليم ﴾ [البقرة : ٢٣١] .

وقال تعالى : ﴿ واتقوا اللَّه واعلموا أن اللَّه بما تعملون بصير ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

وقال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا اللَّه وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ [البقرة : ٢٧٨] .

وقال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا اللَّه حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا اللَّه وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون ﴾ [المائدة : ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ فاتقوا اللَّه وأصلحوا ذات بينكم ﴾ [الأنفال : ١] .

وقال تعالى : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ [الحج : ١] .

والآيات الكريمة في هذا المعنى كثيرة .

جعل اللَّه التقوى ركنًا من أركان الولاية ، قال تعالى : ﴿ ألا إن أولياء اللَّه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ۞ الذين آمنوا وكانوا يتقون ۞ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات اللَّه ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [يونس : ٦٢-٦٤] .

فماذا علينا لو آمنا واتقينا فظفرنا بما أعد اللَّه لأوليائه وكانت لنا البشرى في الحياة الدنيا وفي

الآخرة ، وكتب لنا الأمن والسلامة وذهب عنا الحزن .

لا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة إلا التقوى ، قال تعالى : ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ۞ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ [المائدة : ٦٥، ٦٦] .

في التقوى نجاة من كل كرب ، وفرج من كل ضيق ، ويسر من كل عسر ، قال تعالى : ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ۞ ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ [الطلاق : ٢، ٣] ، وهذا وعد ، ووعد الله حق ، فاللهم ارزقنا إيمانًا نصدق به كلامك ، ويقينًا يهيئ لنا الثقة بوعدك .

ما اختلفنا وتفرقنا ، وما تنازعنا ففشلنا وذهبت ريحنا ، وغلبنا على أمرنا إلا لإعواز التقوى .

ما قدرت علينا أرزاقنا ولا سدت في وجوهنا سبل المطالب إلا لإعواز التقوى .

لو اتقينا الله ما كان بيننا الكاذبون ولا المغتابون ولا النمامون ، ولا المراءون ، ولا المخادعون ، ولا الزناة ، ولا آكلوا الربا والسحت ، ولا السفاكون ، ولا تجار الأديان ، ولا الخائنون ، ولا المطففون ، ولا مخسرو الميزان ، ولا المفرطون في جنب الوطن ، ولا الخارجون على الجماعة ، ولا المضيعون لحقوق الله تعالى وحقوق عباده ، ولا المبتدعون التاركون لسنة رسول الله ﷺ .

لو اتقينا الله ما وجد بيننا المستكبرون الذين ترم أنوفهم وتنقلب حماليقهم ، ويأخذ الغضب بأكظامهم إن لم يتمثل لهم الناس قيامًا ويقبلوا أيديهم .

لو اتقينا الله لبرئنا من أدواء الحسد والحقد والضغينة والنفاق .

لو اتقينا الله لأصبح المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها أمة واحدة تتعاون على البر والتقوى وتعد ما استطاعت من قوة ومن رباط الخيل ترهب به عدو الله وعدوها .

وبعد ، فقد مللنا الكلام الذي لا يجدي ، والقول الذي لا يفيد ولا يغني عنا شيئًا ، لا نريد أن تكون التقوى ألفاظًا تلوكها الألسنة ، وكلمات تخطها الأقلام ، إنما نريد أن تكون التقوى حالاً قائمة بالنفس ، وخلقًا راسخًا فيها ، وملكة مهيمنة عليها ، فلا نقول ولا نفعل إلا ما تمليه التقوى .

وليست التقوى منحة تمنح للناس وهم غافلون ، ولا حظًا من الحظوظ يقسم لهم وهم نائمون ، ولا قسمة من القسم كالطول والقصر ، والبياض والسمرة ، والجمال والدمامة ، إنما هي ثمرة المجاهدة ومغالبة الهوى والنفس ومعصية الشيطان ، وهي في وسع كل امرئ منح قسطًا من العقل ، ولولا ذلك ما أمرنا الله بها ولا كلفنا إياها ، والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها ، ولا يحمل الناس ما لا طاقة لهم به .

فلنعمل على كسب التقوى لنظفر بثمراتها الطيبة ، ونفوز بما أعد الله للمتقين .

وبعد ؛ فما التقوى التي أكثرنا القول فيها ؟ التقوى خوف الله والعمل بأوامره واجتناب نواهيه .

نسأل الله بواسع رحمته وعظيم فضله أن يجعلنا من عباده المتقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . آمين .

أصنام في بلاد الإسلام

من روائع الماضي

لا يقذفن في روعك أني أريد أن أحدثك عن تلك التماثيل التي يقيمها الناس لتمجيد العظماء وتخليد ذكراهم - وإن كانت هذه التماثيل خليقة ألا تقام في بلاد الإسلام ، وإن كان تمجيد العظماء جديرًا أن يكون بغير هذا العبث - إنما يخلد العظيم ويمجد إن كان لمحبيه فيه أسوة حسنة ، فاقتفوا أثره ، ومضوا على سننه ، وتخلقوا بأخلاقه ، ثم ورثوها من بعدهم فيخلد في الأجيال بخلقه العظيم وصفاته السامية .

وعندي أن العظيم هو من يخلد نفسه لا من يخلده الناس ، ومن يخلد نفسه بأثر نافع تجنى ثمرته على مر الأجيال ، وتعاقب الدهور ؛ لأن من يحاول أبناء جيله تخليد عظمته بصخرة تنحت وتقام ، لا تلبث عظمته أن تنسى وتمحى من ذاكرة الأجيال ، فإذا انقرض جيله وفني قبيله ، وجاء أخلافهم من بعدهم ، لا يعرفون من صاحب هذا التمثال إلا طوله وعرضه وبعض ملامح وجهه ، وما أقل غناء هذه المعرفة في تمجيد العظماء !!

وهذا تمثال (لاظ أوغلي) قائمًا في أشد أماكن القاهرة ازدحامًا بالسكان ، وأحفل سبلها بالسابلة ، وما أكثر الذين يشاهدونه في غدوهم ورواحهم ! وما أقل من يعرف منهم من أمره شيئًا .

فبغير إقامة التماثيل يكون تمجيد الأبطال في بلاد الإسلام.

ومهما يكثر المتفيهقون من التغني بالفن الجميل ، والمناداة بوجوب رعايته ، ولزوم العناية به والحض على بعثه من مرقده ؛ فما نحن بمغيري رأينا في ذلك ، فإن هناك من الفنون الرفيعة ما هو أخلق بأن تنفق في اتقانه الأوقات ، وتبرز فيه الكفايات ؛ وتظهر فيه العبقرية ، ويكسر عليه الجهد .

لست أحدثك إذًا عن هذه التماثيل ، فليست تعبد ، ولا يمسح بأركانها ماسح ، وليست ترجى ولا تخاف ، ولا تنذر لها النذور ، ولا يحرق لها البخور ، ولا تذبح لها الذبائح ، ولا تشد إليها الرحال ، ولا يقف الناس بين أيديها وقفة الذل والضراعة والخشوع ، ولا يهتف بأسمائها على بعد الدار ، وشط المزار ، ولا تدعى في أوقات المحنة والاضطرار .

إنما أحدثك عن هذه الأصنام التي أقيمت على قبور بعض الأولياء والعلماء وغيرهم ممن ضمتهم الأرض بعد أن عبروا بحر الحياة ، وذاقوا حلوها ومرها ، وبلوا خيرها وشرها ، وجرت عليهم أحكامها ، وتقلبت بهم أمورها ، ثم جاءهم هادم اللذات ، ومفرق الجماعات ، فنقلهم من عالم العمل إلى عالم الجزاء ، فأفضوا إلى ما قدموا ، ووجدوا ما

سوّل الشيطان للناس أن الموتى يؤتون القدرة على التصرف في ملكوت اللّه ما لم يؤت الأحياء، وما أسرع ما سول للجهلاء منهم أن يقيموا هذه الأصنام على قبورهم، ثم يزورونها التماسًا للبركة !!

بقلم الشيخ :

أبي الوفاء محمد درويش

(رحمه اللّه)

عملوا حاضرًا ، وارتهن كل بعمله : ﴿ فأما إن كان من المقربين ۞ فروحٌ وريحانٌ وجنة نعيمٍ ۞ وأما إن كان من أصحاب اليمين ۞ فسلامٌ لك من أصحاب اليمين ۞ وأما إن كان من المكذبين الضالين ۞ فنزلٌ من حميمٍ ۞ وتصلية جحيمٍ ۞ إن هذا لهو حق اليقين ﴾ [الواقعة : ٨٨- ٩٥] .

ولكن سرعان ما سول الشيطان والجهل للناس أن يشيدوا على قبورهم القباب الذاهبة في السماء ، وأن يضعوا على أجداثهم توابيت يخلعون عليها الثياب الفاخرة ، ويلوثون لها العمائم العجراء ، ثم يحوطونها بالمقاصير .

عناية ما لقيتها اللات والعزى ، ولا ظفرت بها مناة الثالثة الأخرى ؛ ولا تمتع بها هبل الأكبر ، ولا آمون رع .

الأصنام التي أحدثك عنها هي هذه التوابيت بثيابها وعمائمها ، وستورها وعطورها ؛ وقبابها ومقاصيرها ، وقناديلها وسدنتها .

كان المصريون القدماء يعتقدون أن عظماءهم إذا ماتوا صعدت أرواحهم في السماء ، واستحالوا آلهة يتصرفون في أهل الأرض بالخير والشر ، والنفع والضر .

ولو أنك زرت معبد سيتي الأول بأبيدوس (العرابة المدفونة) مديرية جرجا لرأيت إلى جانب هياكل الآلهة السبعة هيكلاً ثامنًا لعبادة سيتي بعد موته ؛ أي بعد أن يحور إلهًا .

ما أشبه الليلة بالبارحة ، وإن اختلفت الأسماء ، وإن غالط المغالطون !

ما أسرع ما أصبح الناس يعتقدون أن الموتى يؤتون من القدرة على التصرف في ملكوت اللّه ما لم يؤت الأحياء .

ما أسرع ما سول الشيطان والجهل للناس أن يقيموا هذه الأصنام على قبورهم ، ثم يزورونها التماسًا للبركة منها ، فأصبحت تراهم يطوفون من حولها ، ويستلمون أركانها ، ويقبلون ثيابها وأخشابها وأعتابها ، ويبثونها شكواهم ضارعين خاشعين أذلاء ، ناكسة أبصارهم محترقة قلوبهم .

رويدًا يا قوم عفا اللّه عنكم

وهيأ لكم من أمركم رشدا

أنسيتم العزة والكرامة ، ألم يكفكم أن أذللتم أنفسكم لكل جليل وحقير ممن تظنون أن بيده قضاء مصالحكم من الأحياء فخشعتم بين أيدي الموتى ؟ ثم لم يكفكم ذلكم حتى ذللتم أمام الصخور والرجام

والخشب المسندة ؟

ولو أنكم عبدتم ربكم واتقيتموه حق تقواه ، وسألتموه حاجاتكم ضارعين بين يديه كما تضرعون بين أيدي العبيد العاجزين والموتى الهالكين ، لقضى حاجتكم وأنتم أعزة ، موفورو الشرف والكرامة .

يا قوم ؛ ما لكم لا تذلون للّه الذي تعنو له الوجوه ؟

لو أنكم خشعتم في صلاتكم بعض خشوعكم بين أيدي هذه الأصنام لكانت صلاتكم خير وسيلة تتقربون بها إلى ربكم ، فإذا دعوتموه صادقين مخلصين استجاب لكم ، وأنتم تروون فيما تروون عن الصادق الأمين ﷺ : ((رب أشعث أغبر ، ذي طمرين ، لا يؤبه له ، لو أقسم على اللّه لأبره)) .

يا قوم ؛ أنتم تكذبون على اللّه وعلى أنفسكم ، حين تقفون في صلاتكم ، ثم تقولون : ((اللّه أكبر)) ، فكيف تكبرون ربكم ثم ترجون كل من دب ودرج ؛ وتخشون كل غاد ورائح ، وربكم يقول : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب اللّه لنا ﴾ [التوبة : ٥١] ، ويقول : ﴿ ما يفتح اللّه للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ [فاطر : ٢] .

ذل من يخشى غير اللّه ، وخاب من يرجو سواه .

لست آسى على هذا الجيل الذي خطا إلى الشيخوخة ، ودلف إلى القبر ، فلا أمل في إصلاحه ، ولا رجاء في إقلاعه عن عادات وجد عليها الآباء والأجداد فنشأ عليها ، وتربى في أحضانها .

إنما أخشى على الجيل الناشئ أن تفسده البيئة ، وتفسد عليه عقيدته البريئة ، وقلبه النقي ، ونفسه الطاهرة ، وفطرته السليمة .

أخشى على الجيل الناشئ أن يرى آباءه وأجداده يقدسون هذه الأخشاب ، ويقبلون هذه الثياب ، فيأخذون أخذهم ، ويصنعون صنيعهم ، فتعم البلوى ، ويعز الشفاء .

والدواء الناجع لهذا الداء العضال أن نتواصى بالكف عن زيارة هذه القبور ، بل هذه الأصنام ، فلسنا نجني من زيارتها إلا الإثم والعار .

سيقول المتزمتون : أنت إذًا تنهانا عن زيارة القبور ، وهي من القرب التي يُثاب فاعلها ، وقد دعى الرسول ﷺ إلى زيارتها للعظة والاعتبار ؛ لأنها ترقق القلب وتذكر الموت .

لهم أن يقولوا ذلك ، وعلينا أن نقول ردًا على ما يقولون : إن القبور التي ندبنا إلى زيارتها ، هي تلك القبور اللاطئة بالأرض ، هي القبور الشرعية التي لم تقم عليها الأوثان والقباب ، ولم تتخذ عليها المساجد والسرج ، ولم تدر حولها المقاصير ، ولم يقف على أبوابها السدنة والحجاب .

فإن نهيت فإنما أنهى عن زيارة هذه الطواغيت والأصنام والأوثان التي قامت فوق القبور ، وإن في تسمية هذه الطواغيت قبورًا لظلمًا للحق ، وعدوانًا على الشريعة الغراء ، وعقوقًا للغة ، وإفسادًا لحقائق الأشياء ، وجناية على عقيدة التوحيد ، وبعثًا للجاهلية الأولى ، وإنشادًا لوثنية الأولين ، فلا تلبسوا الحق بالباطل ، وتكتموا الحق وأنتم تعلمون .

متى تقع العبرة موقعها من القلب بزيارة وثن له سدنة يقومون على بابه ، وخدم يعنون بأستاره وثيابه ؟

وكيف تنشأ العظة من زيارة صنم لا يزوره زائروه إلا لطلب الحاجات ؛ ودفع الملمات ، وكشف الكربات وشكوى البليات ، ورجاء البركات ؟

أليس في زيارة هذه الطواغيت تكثير لسواد عابديها ؛ وإغراء لهم بالإمعان في الفساد الذي هم فيه ممعنون .

يا قوم ؛ اجتنبوا هذه الطواغيت ، فقد قال اللّه تعالى ، وهو أصدق القائلين : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى اللّه لهم البشرى فبشر عباد ۞ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم اللّه وأولئك هم أولو الألباب ﴾ [الزمر : ١٧، ١٨] .

يا قوم ؛ الماء القراح حلال طلق سائغ ، ولكن إذا خالطه الخمر حرم على الشاربين ، والخبز حلال طيب ، فإذا غمس في إدام محرم حرم على الآكلين ،

وثوب القطن أو التيل أو الكتان إذا اشتريته بمال من طيب ما كسبت ، حل طيب ؛ فإذا خطته بخيط مغتصب حرم عليك ارتداؤه .

وزيارة القبور الشرعية أمر محبوب ، ولكن إن قامت عليها الأنصاب والأصنام والأوثان والطواغيت ، أمرنا بهدمها ، فضلاً عن اجتناب زيارتها ، وهذا علي بن أبي طالب ، رضي اللّه عنه ، يقول لأبي الهياج الأسدي : إني أبعثك على ما بعثني به رسول اللّه ﷺ : ((اذهب فلا تدع قبرًا مشرفًا إلا سويته ، ولا تمثالاً قائمًا إلا طمسته)) . [صحيح الترمذي : (٨٣٩)] .

والدواء الحاسم والمناعة الواقية ، أن تهدم هذه القباب ، وأن تحرق هذه الأخشاب ، وأن تمزق هذه الثياب ، فإن نحن فعلنا ذلك فقد حطمنا هذه الطواغيت وسحقنا هذه الأصنام ، التي تعبد في بلاد الإسلام ، وضمنا للجيل الناشئ عقيدة سليمة ، ودينًا خالصًا لا يمازجه شرك ، ولا يخالطه فساد .

وهذه قبور الشهداء في حضن أحد ، وهذه قبور أهل البقيع من الصحابة الأجلاء والتابعين الفضلاء ، مخطوطة بالعراء يعلوها التراب ، فلا توابيت ولا ثياب ولا مقاصير ولا قباب ، فهل أولياؤكم خير من أولئكم ؟!

يا قوم ؛ كفى ضلالاً وبهتانًا ، وإمعانًا في الباطل ، وبعدًا عن الحق ، فالحق أحق أن يُتبع ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، فأنيبوا إلى ربكم ، واقرعوا باب فضله ورحمته وكرمه ، وذروا هذه الهياكل التي نصب فيها الشيطان شراكه وأعد شباكه ، قاطعوها . انصرفوا عنها ، لا تزوروها ، ولا تقربوها ، حتى تطهر مما فيها من الأرجاس .

إنما التوابيت والثياب والعمائم والقناديل والمجامر والمقاصير رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون .

والآن .. والآن أهيب بحضرات العلماء الصرحاء الشجعان الذين ما تعلموا العلم ليكون حرفة لمعاش ، ولا موردًا لرزق ، وإنما تعلموه ليزدادوا خشية من اللّه ، وقربًا إلى حظيرة رحمته ، وقوة على الجهاد في سبيله .

أهيب بكم يا حضرات العلماء أن تضموا أصواتكم الندية إلى صوتي ، وأملنا إذا تعاونا على هذا البر ، نستطيع أن نبلغ دعوتنا إلى العالم الإسلامي كله .

إن أندى لصوت أن ينادي داعيان .

فكيف إذا نادى ثلاثة ، فكيف إذا اتحدت أصوات العلماء جميعًا في الدعوة إلى الحق .

ضموا أصواتكم إلى صوتي ، ونادوا في العالم الإسلامي كله ، فلعله ينتبه من غفلته ويهب من رقدته ، ويستجيب لنا بعد أن طال عليه السبات ، حتى خشينا أن يتصل سباته برقدة الموت .

نادوا في العالم الإسلامي بكلمة الحق ، فلعله يصغى إليها فيعود إليه مجده الزائل ، وعزه الغابر .

اهتفوا بالعالم الإسلامي وأيقظوه ، فقد هوى إلى الحضيض ، وما قذف به من حالق إلا جهله المطبق الذي أسلمه إلى الشرك الشنيع بعد عزة التوحيد الخالص .

هبوا أيها العلماء : ﴿ وجاهدوا في اللّه حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدًا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ [الحج : ٧٨] .

هبوا أيها العلماء ، وجاهدوا ، واصبروا ، وأعلنوا الحق على رءوس الأشهاد ، ولا تخافوا لومة لائم ، أعلنوا الحق صريحًا واضحًا لا التواء فيه ولا تعقيد ، فمن شاء فليؤمن ؛ ومن شاء فليكفر ، واللّه معكم ولن يتركم أعمالكم .

جاهدوا في سبيل الحق وأعلنوا كلمة الحق ، واعتصموا باللّه هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير .

وحسبنا اللّه ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم .

أحسن ما قرأت

الإيمان واليوم الآخر

كتبه الشيخ / أبو الوفاء محمد درويش
(رحمه الله)

إن الإيمان باليوم الآخر من أوثق أركان الإيمان ، وجميع الأديان السماوية تشترك في الدعوة إلى الإيمان به ؛ لأن الذي لا يؤمن بالبعث لا يتحرج عن مأثم ، ولا ينتهي عن منكر ، ولا يرقب في مؤمن إلاً ولا ذمة ، ولا يرجو لله وقارًا ؛ لأنه لا يرجو ثوابًا ، ولا يخشى عقابًا ، وأكثر ما يحفز الناس إلى فعل الخير : رجاء الثواب ، وأكثر ما يزعهم عن اقتراف الشر خوف العقاب ، فإذا لم يرجو ثوابًا ، ولم يخشوا عقابًا لم يفعلوا خيرًا ، ولم ينتهوا عن شر .

وإذا كنا نرى كثيرًا ممن يدعون الإيمان بالبعث والجزاء ، يقترفون شر المنكرات بغير خجل ولا استحياء ، فكيف بمن لا يؤمن ببعث ولا جزاء ؟

الإيمان بعدل الله يقتضينا الإيمان بالبعث والجزاء ؛ لأننا نرى في الدنيا أشخاصًا طيبيين مستقيمين صالحين ، ولكن حظوظهم في الدنيا منقوصة يقاسون أحيانًا شظف العيش ، وذل الحاجة ، وأحيانًا يقاسون ألم المرض والحرمان من العافية ، وطورًا يضطهدهم الأشرار ، أو تعتريهم النكبات ، وتحل بهم الكوارث ، ونرى أشرارًا مستمتعين بالصحة والعافية والثراء الواسع والجاه العريض ، ويأبى عدل الله إلا أن يسوي بين عباده ، فمن فاته حظه في الدنيا فلا بد أن يناله في الآخرة ، ولا بد أن يجزى الناس بأعمالهم ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ، فإذا انقضى الأجل الذي كتبه الله لهذه الحياة نُفخ في الصور ، والنفخ في الصور حدث من أحداث القيامة لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى ، يترتب عليه تغير كلي في هذا العالم ، واضطراب في نظامه ، فتكور الشمس ، وتنكدر النجوم ، وتنشق السماء ، وتدكدك الأرض ، وتسير الجبال ، وتسجر البحار ، ويصعق من في السماوات والأرض ، ثم ينفخ فيه مرة أخرى ، فإذا هم قيام ينظرون ، فيحاسبهم الله ويزن أعمالهم بالقسط .

قال تعالى : ﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ [الأعراف : ٨] .

ولقد وصف الله تعالى ذلك اليوم وما فيه من جسام الأحداث أصدق وصف ، وصوره أروع تصوير ، فقال تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى

جهنم زمرًا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ۞ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ۞ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرًا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوه خالدين ﴾ [الزمر : ٧١- ٧٣] .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة في وصف شقاء أهل الجحيم ، ونعيم أهل الجنة ، لا أطيل القول بإيرادها .

لم يطالبنا رب العزة جل ثناؤه بالإيمان بالبعث بغير أن يقيم لنا الأدلة الساطعة ، والبراهين الناصعة على قدرته تعالى عليه ، وعلى أن العقول السليمة تقره ولا تؤمن بسواه ، وعلى أنه من مقتضيات العدل ، وأن العدل لا يتم بدونه ، ولو لم يفصل لنا هذه الأدلة لم يكن إيماننا إيمانًا ، بل خضوعًا وإذعانًا ، ولكنه سبحانه أراد أن يكون إيماننا بالبعث والنشور عن اقتناع ويقين ، وطمأنينة قلب ، ومتانة عقد ؛ فذكر في كتابه العزيز - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - الأدلة القاطعة التي لو تأملها المتأمل ، وتدبرها المتدبر ، لم تدع عنده مساغًا لشك ، ولا مجالاً لريبة ، ولملأت عقله يقينًا ، وقلبه طمأنينة ، ونفسه سكينة ، وصدره ثلجًا .

قص الله تعالى ما كان من أمر ذلك الذي مر على قرية هامدة ليس فيها إلا العظام النخرة ، والفرات السحيق ، فتعاظمه الأمر ، وسأل نفسه سؤال من ملك عليه العجب أقطاره : كيف يحيي الله هذه القرية بعد موتها ؟ فأقنعه الله تعالى بالدليل العملي أن إعادتها إلى الحياة لا يعجز رب العزة القادر على كل شيء ، فاستمع إلى الآية الكريمة في روعة بلاغتها ، وجمال قصصها ، وبالغ إقناعها ، وناصع سلوكها ، يقول تعالى : ﴿ أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يومًا أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحمًا فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ [البقرة : ٢٥٩] .

وذكر لنا ما كان من إبراهيم عليه السلام حين طلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ، حتى يرى ذلك عين اليقين ، وكيف ملأ الله قلبه طمأنينة حين أراه بطريقة عملية كيف تستجيب الأرواح لأمره إذا دعاها ، لتعود إلى أجسادها ، قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ [البقرة : ٢٦٠] .

وتدبر الحكمة الدامغة في قوله تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ۞ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ۞ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا فإذا أنتم منه توقدون ۞ أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ۞ إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ﴾ [يس : ٧٨- ٨٢] .

وتدبر البرهان المبين في قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يَعْي بخلقهن بقادرٍ على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ [الأحقاف : ٣٣] .

وما أبلغ الحجة التي تجتلى نورها في قوله تعالى : ﴿ اللَّه الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ۞ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ۞ فانظر إلى آثار رحمة اللَّه كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾ [الروم : ٤٩، ٥٠] .

وإن العجب ليملأ عليك نفسك حين تتدبر هذه الآيات ، سيسفر لك نورها ، فترى كيف يأخذ بعضها برقاب بعض ، وكيف يقاس فيها الغائب على الشاهد ، وكيف يستدل بما تراه العين على ما يدركه العقل ، ولن يسعك إلا أن تهتف من أعماق صدرك : آمنت بالبعث والنشور ، فاستمع لما يقول اللَّه جل ثناؤه : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ۞ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ۞ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ۞ ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ۞ والنخل باسقات لها طلع نضيد ۞ رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ﴾ [ق : ٦- ١١] .

ويستدل سبحانه على عدله المطلق ، وعلى أنه لا يسوي بين المؤمن والكافر ، ولا يترك الإنسان هملاً ، وعلى أنه لا بد من البعث لتجزى كل نفس بما تسعى ، بقوله تعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ۞ ما لكم كيف تحكمون ﴾ [القلم : ٣٥، ٣٦] .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ۞ ألم يك نطفة من مني يمنى ۞ ثم كان علقة فخلق فسوى ۞ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ۞ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ [القيامة : ٣٦- ٤٠] .

القضاء والقدر

إن عقيدة القضاء والقدر لا لبس فيها ولا غموض ، ولا إبهام ولا عسر ، فدع ما سمعت فيها وما قرأت وخذها عني سهلة ميسرة ، تنساب إلى عقلك أنسياب الماء إلى منحدره ، سأترك هذه المصطلحات العلمية التي وقفت دهرًا طويلاً حائلاً دون فهم الناس لهذه العقيدة السهلة سهولة الملة الإسلامية ، السمحة سماحة الإسلام ، اليسيرة كل اليسر .

لا مرية في أن هذا العالم لم يخلق عبثًا ، ولا هو يسير فوضى ، بل هو خاضع لقوانين حكيمة ، نواميس دقيقة ، لا يخرج عن سلطانها قيد شعرة .

هذه القوانين الأزلية الأبدية الخالدة الحكيمة التي وضعها رب العزة جل ثناؤه ، ليسير عليها هذا الكون بسمائه وأرضه ، وشمسه وقمره ونجومه وأفلاكه ، وجباله وبحاره ، وحيوانه ونباته ، وعامره وغارمه ، هي القدر .

أما القضاء : فهو تنفيذ أحكام هذه القوانين وإبراز نتائجها في الخارج على مقتضى علمه تعالى وحكمته .

واسمح لي أن أضرب لك مثلاً يوضح لك ما قدمته ويفصله :

وضع رب العزة قانونًا يقضي بأن يكون مجموع زوايا المثلث الثلاث مساويًا لزاويتين قائمتين ؛ أي ١٨٠ ° درجة ، فهذا القانون : قدر .

فإذا أنت رسمت مثلثًا أيًا ما تكن أضلاعه وزواياه : كان مجموع زواياه ١٨٠ ° حتمًا ، ومهما تحاول ، ومهما تبذل من الجهد لكي تغير هذه الحقيقة ، فلست بمستطيع إلى ذلك سبيلاً .

تنفيذ هذا القانون وبروز حكمه في الخارج ، وجريانه على المثلث الذي رسمته : هو القضاء .

وقس على ذلك سائر القوانين الهندسية والرياضية والفلكية والطبيعية والكيمياوية ، وقوانين الوراثة والغريزة ، وما يجرى في عالم النبات والحيوان والجماد ، وما إلى ذلك .

وذلك ما عبر عنه القرآن الكريم بسنة اللّه التي لن تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً .

فالأسباب تفضي إلى ما مسبباتها حتمًا ، والمقدمات تسلم إلى نتائجها لا محالة ، فمن أتى الأسباب استهدف لمسبباتها ، ومن اتخذ المقدمات أفضت به إلى النتائج ، ولا يظلم ربك أحدًا .

وكل ما يصدر عن الإنسان فهو عمله الذي يستهدف لنتائجه ، ويتحمل تبعاته ، ويلقى جزاءه ، والناس مجزيون بأعمالهم : إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر .

ولا يسوغ لامرئ أن يقترف سيئة ثم يحمل القضاء والقدر تبعة ما اقترف ، بل عليه أن يرجع باللائمة على نفسه ، ويتوب من ذنبه ليحظى بمغفرة ربه ، فقد قال تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر اللّه يجد اللّه غفورًا رحيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] .

والكلمة التي تجري على ألسنة العامة وأشباههم وهي قولهم : إلهي ما عصيتك باختياري إلا بجهلي وقضائك ، من الكذب الوقح ، والمغالطات الجزئية ، إذ كل عاص يشعر بأنه يقترف المعصية بكامل اختياره ، وإن المرء حين يقترف الخطيئة أول مرة يحس صراعًا قويًا في نفسه بين داعي الواجب والحق والفضيلة ، وداعي الهوى والباطل والرذيلة ، ولكنه يؤثر اللذة والعاجلة ، والشهوة العابرة على النعيم المقيم ، فينساق مع الهوى والفتون ، ويخفت صوت الضمير الذي يدعوه إلى الفضيلة ، فكيف يزعم بعد هذا أنه لم يعص اللّه باختياره ؟ وكيف يحمل قضاء اللّه جريرة معصيته ؟ أيحسب أن هذا الكذب يبرر خطيئته ، ويبرئه من إثم ما اقترفت يداه ؟

وإذا شعر أن القضاء يحرفه نحو الهاوية فلم يستخذى له ؟ ولم لا يقاومه بكل ما منحه اللّه من قوة ؟ وقد علمنا اللّه تعالى أن ندافع الأقدار بالأقدار ، فندفع قدر الجوع بقدر الطعام ، وندفع قدر الظمأ بقدر الشراب ، وندفع قدر المرض بقدر الدواء ، وقدر هجوم العدو بقدر الدفاع وإعداد ما يلزم من القوة ، وقدر الذنب بقدر التوبة النصوح . وهكذا .

وللّه در أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، رضي اللّه عنه ، إذ يلقي كلمة الفصل في مشكلة القضاء والقدر حين سُئل : أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من اللّه وقدر ؟ فقال للسائل : ويحك ! لعلك ظننت قضاءً لازمًا ، وقدرًا حاتمًا ، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد ، إن اللّه سبحانه أمر عباده تخييرًا ، ونهاهم تحذيرًا ، وكلف يسيرًا ، ولم يكلف عسيرًا ، وأعطى على القليل كثيرًا ، ولم يُعْصَ مغلوبًا ، ولم يطع مكرهًا ، ولم يرسل الأنبياء لعبًا ، ولم ينزل الكتاب للناس عبثًا ، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار .

الإحسان

الإحسان : ((أن تعبد اللّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) .

هذا هو القول الفصل الذين يطمئن به القلب ، وتسكن إليه النفس ، ويثلج به الصدر ، هذا مثل رائع من جوامع الكلم التي أوتيها رسول اللّه ﷺ :

لفظ قليل ، ومعنى كثير ، كلمات معدودة ، ومعان لكثرتها غير محدودة .

يصور عليه الصلاة والسلام الإحسان في أجمل مظاهره ، وأروع صوره ، وأجمع حدوده ، ويسوق معناه إلى الأذهان سوقًا رقيقًا ، حتى ينساب فيها بغير عسر ، كما ينساب الماء إلى منحدره .

هذا هو الإحسان الذي أعوز الصوفية لفظه ومعناه ، فوضعوا له اسمًا لم يعرفه الإسلام ، ولم ينطق به النبي العربي ولا صحابته الأخيار ، ولا خلفاؤه الراشدون ، وهو لفظ ((التصوف)) ، الذي ما نطق به مسلم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، وجعلوا من تمام معناه : اعتناق عقيدة ((وحدة الوجود)) التي ضل بها كثير ممن قال بقولهم ، ونسج على منوالهم .

الإحسان : ((أن تعبد اللّه كأنك تراه)) !

هكذا يصور رسول اللّه ﷺ ليقربه به في أوجز لفظ ، وأعذبه إلى قلوب المؤمنين .

((أن تعبد اللّه كأنك تراه)) : كأنك تراه في جلاله وعظمته وعلمه وحكمته ، وقوته وقدرته وفضله ورحمته ، وقد بهرك جماله ، وغمرتك أنواره .

كأنك تراه ؛ وقد خلقك فسواك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركبك . كأنك تراه يتولاك بالرعاية ، ويتعاهدك بالعناية ، ويوالي عليك الألطاف . كأنك تراه يدبر أمورك وأمور الخلق قاطبة ، ويسخر لك رزقك وأرزاق الأحياء طرًا . كأنك تراه يدبر أمر نفسك ، ودقات قلبك ، وهضم معدتك وأمعائك وحسن أعصابك ، وشعور حواسك ، وإدراك عقلك ، وحركات ذهنك ، وومضات فهمك .

كأنك تراه ، وهو يخرج لك من أديم الأرض طعامك ، وينزل لك من السماء شرابك ، ورحيل غذاءك دمًا ، ودمك قوة في بدنك ، ونورًا في بصرك ، وسمعًا في أذنك ، وشمًا في أنفك ، ولمسًا في يدك ، وذوقًا في لسانك .

كأنك تراه وهو قائم على كل نفس بما كسبت وبيده نواصي عباده من تواضع منهم رفعه ، ومن استكبر خفضه .

كأنك تراه ، والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة ، والسماوات مطويات بيمينه ، وقد عنت له الوجوه وخشعت الأبصار .

كأنك تراه ، وقد اتصف بكل كمال يجول في ذهنك ، أو يهجس في خاطرك ، أو تحدث به نفسك ، أو يعزب إدراكه عن علمك ، وقد تنزه عن كل نقص ، أو شائبة نقص ، أو شبهة نقص ، وتعالى عن كل عيب ، أو شائبة عيب ، أو شبهة عيب .

كأنك تراه ، وقد تفرد بالعزة والكبرياء ، وتوحد في الأرض والسماء ، وتنزه عن الشريك والنظير ، وتعالى عن الشبيه والمثيل ، واستأثر بالملك والسلطان ، والتصرف في جميع الأكوان .

كأنك تراه ؛ وقد استوى على عرشه يدبر الأمر ، والأرض جميعًا قبضته ، والسماوات مطويات بيمينه . ولكن حذار أن تفكر في ذاته فتهلك ، فإنك لن تقدره قدره ، وليس كمثله شيء ، فإذا مثلت لنفسك كل هذه المعاني ، وتصورت مجالي العظمة ، ومظاهر الجلال ، فانظر كيف تعبد ربك .

لا جرم أنك بعد هذا إن شهدت أن لا إله إلا اللّه شهدت بعلم وعقيدة ويقين وإيمان ، وإن شهدت أن محمدًا عبده ورسوله ، شهدت بتصديق وإخلاص وإذعان ، وإن صليت أقمت الصلاة وأديتها تامة المعاني والأركان في خشوع وخضوع وتقوى وإحسان ، وإن آتيت الزكاة آتيتها طيبة بها نفسك ،

مطمئنًا بها قلبك ، محتسبًا ثوابها عند من لا يضيع أجر المحسنين ، راجيًا جزاءها عند خير الرازقين ، وإن صمت فعلت ذلك إيمانًا واحتسابًا ، فلم تفسق ، ولم ترفث ، ولم تصخب ، ولم تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواءً ، واثقًا بالأمر الكبير عند من أحصى كل شيء كتابًا ، وإن استطعت الحج إلى بيته الحرام ، بادرت وسابقت ، وشمرت وسارعت لترى هذه المشاهد التي تصبو نفوس المؤمنين إلى رؤيتها ، وتتوق قلوب الصالحين إلى مشاهدتها ، ولتبايع ربك في بيته الكريم ، وتذكره في الأيام المعدودات ، والبقاع الطاهرات ، ولتدعوه في خشوع المتبتلين ، وتقوى المخبتين ، وإيمان الصادقين ، وضراعة القانتين ، ولتحظى بإقباله عليك ، وتظفر برضاه عنك .

إن عاملت الناس عاملتهم بأمانة وإخلاص وصدق ووفاء ، فإن حدثتهم لم تكذبهم ، وإن وعدتهم لم تخلفهم ، وإن ائتمنوك لم تخنهم ، وكنت معهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا ، وكالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، وجعلت نصب عينيك توصيل الخير إليهم ، ومن أكبر همك دفع الأذى عنهم ، وكنت ابنًا للكبير ، وأبًا للصغير ، وأخًا للنظير .

وراقبت ربك في عبادتك كلها ، في وضوئك وطهارتك ، وذكرك وتسبيحك ، وفي أعمالك كلها ، وفي معاملاتك جميعًا ، وذكرته قائمًا ، وقاعدًا وعلى جنبك .

فإن ملكت عليك هذه العقيدة نفسك وقلبك ، واختلطت بلحمك ودمك ، استطعت أن تعبد ربك كأنك تراه ، فإن عبدت ربك كأنك تراه ؛ لأنك على يقين من أنه يراك ، فقد بلغت مقام الإحسان ، وطوبى لك ، ولك البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فإن الإحسان درجة فوق درجة الإسلام ، ومنزلة فوق منزلة الإيمان ؛ لأن الإنسان لا يبلغ مرتبة الإحسان إلا إذا استكمل الإسلام والإيمان ، وقد بشر اللَّه المحسنين بحبه ، فقال : ﴿ وأحسنوا إن اللَّه يحب المحسنين ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

والمؤمنين جميعًا يوقنون بأن اللَّه يراهم ، ولكنهم لا يسمون جميعًا إلى المستوى الذي يعبدون فيه ربهم كأنهم يرونه ، فإذا رقى المؤمن في هذه الدرجة وقام هذا المقام تربى في نفسه خلق الحياء من اللَّه تعالى ، ومن تربى فيهم هذا الخلق الكريم ، فإنه يحرسهم في كل زلة ، ويحفظهم من كل سيئة ، ولا جرم أنهم يعيشون طيبين ، وتتوفاهم الملائكة طيبين يقولون : سلام عليكم طبتم فادخلوا دار الكرامة خالدين .

جعلني اللَّه وإياك من المحسنين ، الذين يعبدون اللَّه كأنهم يرونه ، ورزقنا قوة اليقين بأنه يرانا ، حتى نعبده عبادة المحسنين .

استـــــــدارك

وقع في عدد ربيع الأول لسنة ١٤١٩ هـ في مقال ((آفة العلم الهوى)) لفضيلة الشيخ / سليمان الماجد سقط أقواس من المقال والكلام بين هذه الأقواس كان مخرجًا للدكتور / عبد الكريم بكار ، وبسقوط هذه الأقواس صار الكلام للشيخ / سليمان الماجد وليس لصاحبه .

والفقرتان تبدأن من : (أن كثيرا من يبصر الأمر .. لا الذي يفهمه) . (هذا الأمر من الأدواء ... النفاق الخفي) .

من روائع الماضى

عبرة الهجرة

كتبه الشيخ / أبو الوفاء محمد درويش

(رحمه الله)

ما كان رسول الله ﷺ بدعًا من الرسل في هجرته من مكة إلى يثرب ؛ فقد هاجر من قبله الأنبياء ، هاجر إبراهيم أبو الأنبياء إلى الأرض التي بارك الله فيها ، وهاجر لوط عليه السلام من القرية الظالم أهلها حين أراد الله أن يجعل عاليها سافلها ويرسل عليها حجارة من سجيل ، وهاجر يونس عليه السلام لما رأى إصرار قومه على الباطل وتماديهم في المنكر ، وهاجر موسى عليه السلام من مصر مع بني إسرائيل ، حين أراد الله أن يأخذ فرعون وقومه نكال الآخرة والأولى ، وهاجر يعقوب والأسباط إلى مصر يوم جعل الله يوسف عليه السلام على خزائن الأرض يلتمسون وطنًا صالحًا فيه الخصب وفيه لين العيش ، وهاجر صالح من ديار قومه حين تأذن الله ليرسلن عليهم العذاب الأليم ، وهاجر هود عليه السلام يوم أرسل الله على قومه الريح العقيم .

وتلك سنة من سنن الله لن تتحول ولن تتبدل ، وما من نبي إلا عاش غريبًا في أمته ، ثم رد الله غربته ، وليس الغريب من يعيش في مكان قصيٍّ ناءٍ عن أهله وسكنه وأولي قرابته ، بل الغريب من يعيش في مسقط رأسه بين أهله وعشيرته ، ولكنه لا يجد من بينهم من يشاكله في دين ولا عقيدة ولا خلق ولا فكرة ولا نظرة إلى الحياة .

الغريب من قضت عليه صروف الدهر أو تكاليف الحياة أو ضرورة العيش أن يعيش بين قوم ينكرون عليه عقيدته الصحيحة ودينه القويم وعلمه الحق الكريم ومواهبه التي اختصه الله بها ، والله يختص برحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم .

عاش النبي ﷺ في مكة أربعين سنة وهو يحس الوحشة ويألم للغربة في بلده وبين ظهراني أهله وعشيرته

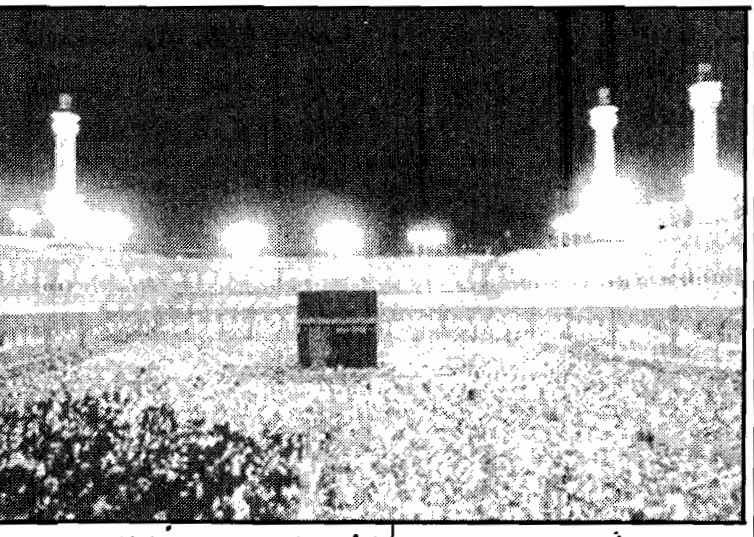

لما كان يرى منهم ما يجافي الفطرة السليمة وينبو عنه العقل الكامل الرجيح ، ولكنه كان يكبت شعوره ويكظم ألمه ، ويلقاهم بالوجه الطلق والنفس الرضية المطمئنة والبشر الذي يلين أقسى القلوب ، ولهذا كان موضع إكبارهم وإجلالهم وثقتهم ومشورتهم ، وكانوا يدعونه الصادق الأمين ، لما اختصه اللّه به من الخلق الكريم والشيم الرفيعة والسجايا النبيلة .

كان ينكر عليهم - في نفسه - إسفافهم في عقائدهم وإخلادهم إلى عبادة ما صنعت أيديهم أو أيدي أمثالهم من أصنام وأوثان لا تحس ولا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنهم شيئاً .

كان ينعي عليهم تورطهم في كبائر الإثم والفواحش ؛ لأن فطرته السليمة التي فطره اللّه عليها لم تكن تسكن إلى ذلك ولا ترضاه ، بل كانت تنفر منه أشد النفور وتشمئز كل الاشمئزاز ، ولكنه لم يكن يعلن إنكاره ونفوره واشمئزازه ؛ لأنه ما كان يريد أن يسيء إليهم ولا أن يؤذيهم ، ولا أن يطعن في دينهم وعاداتهم وما كانوا يعتقدون ، وكان يكتفي من الإنكار بالبعد عنهم وعدم مشاركتهم فيما لا يرضى ، كان يعاملهم معاملة الغريب الحازم الأريب إذا حل دار قوم يخالفونه في عاداته وأحواله ، ويخالفهم في دينهم وعقيدتهم ، يضمر إنكاره في نفسه ، ولا يظهر اشمئزازه من عاداتهم السيئة ، ولا يبدي اعتراضاً على سلوكهم الشائن ، بل يعاشرهم أجمل معاشرة ويبذل لهم من الود والإحسان والمعروف ما يحله من قلوبهم في مكان الإجلال والإكبار .

فلما ضاق ذرعاً بهذا الباطل الذي لم يستطع حيلة لدفعه ولم يهتد سبيلاً لكفاحه ، وعلم أن الحق غير ما عليه أهله ، ولكنه لم يعرف مكانه ، طفق يلتمسه في العزلة والخلوة والتأمل ، فكان يخلو بغار حراء الليالي ذوات العدد ، يفر مما يكره ، ويبحث عما يحب ، حتى جاء الحق من ربه وبعث إليه الملك الذي كان يبعثه إلى الأنبياء والمرسلين من قبله ، فثلج صدره ، وقرت عينه ، وأحس بَرْد اليقين وغمرته أنوار الهداية .

ثم كلفه اللّه تعالى أن يصدع بما يُؤمر ، وأن يعرض عن المشركين ، فأظهر لهم ما كان يخفي عليهم ، وأبدى ما كان يكتم ، وقال لهم : « إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » ، ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ [الصافات : ٤، ٥] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف : ١٩٤، ١٩٥] .

وتحداهم بكتاب كريم ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بهرهم بروعة أسلوبه ، وحسن بيانه ، وقوة حجته ، وسمو بلاغته ، وإخباره بالغيب ، فرموه بالكذب والسحر والجنون ، وسموا كتابه أساطير الأولين ، وقالوا : إنما يعلمه بشر ، فرد الله على كل فرية رموه بها ، وأبطل كل إفك قذفوه به ، وقال : ﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٣] .

وقضى بين ظهرانيهم بعد الرسالة ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى ما فيه سعادتهم

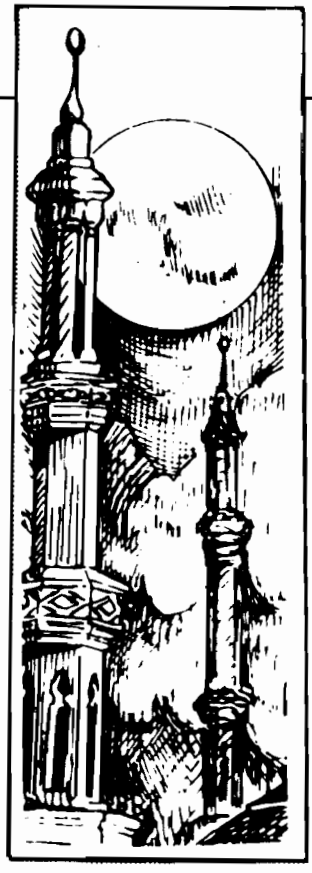

ونباهة شأنهم في الدنيا والآخرة ، فما استجاب له إلا المستضعفون .

وكانوا يتقاسمون ليؤذونه أذى بليغًا ، فإذا لقوه خارت قواهم وفترت عزائمهم وتراخت أوصالهم وعلتهم رعدة وتصبب العرق على جباههم ، فإذا انصرفوا عنه عجبوا لأنفسهم كيف فاتهم تنفيذ ما كانوا يبتغون .

هيبة اختصه الله بها ، ونظرات وديعة يرمقهم بها فتقع كالسهام في سويداء قلوبهم فتردهم جبناء رعاديد ، وما يبدئ الباطل وما يعيد .

فكانوا يُغْرون به سفهاءهم الذين اختلت أعصابهم وضعفت عقولهم ومشاعرهم حتى صاروا كالبهائم العجم ، وحتى هؤلاء ما كانوا يستطيعون أن ينالوه بأذى إلا من خالفه حين يسجد لربه ، ليتقوا نظراته التي لا قبل لهم باحتمال وقعها في نفوسهم ، ولما ضاقوا ذرعًا بأمره طفقوا يمكرون به ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه .

أذن الله له في الهجرة إلى المدينة ، فهاجر من مكة وغادر بها ذكريات عزيزة عليه ، وأماكن لها في قلبه مكان أمين ، فلا تعجب إن علمت أنه وقف بظاهر مكة ، ثم رمقها بنظرة وقال : « إني لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت » .

انتقلت الدعوة من مكة إلى المدينة ، فكسبت بانتقالها ميدانًا جديدًا ، وصادفت جوًا صالحًا وتربة خصبة ، فأثمرت وأزهرت وآتت أكلها شهيًا لذيذًا .

إن في الهجرة لعبرة للمصلحين والداعين إلى الخير والمقتفين آثار رسول اللّه ﷺ إذا نبا وطنك بدعوتك فلا عليك أن ترتاد ميدانًا جديدًا ، وعليك أن تضحي بحبك لجدران دارك في سبيل الحق الذي تدعو إليه ، فالحق لا وطن له ، وحيث وجدت من ينصر الحق معك فهناك وطنك الذي لا ينبغي أن تعدل به وطنًا أو تبغي عنه حولاً .

إذا خذلك أهلك وبنو وطنك ووجدت من دونهم من ينصرك ويؤيدك فهم أهلك وهم عشيرتك فلا تؤثر عليهم أحدًا .

إن الحق يغطيه ركام من العادة والوراثة وآثار البيئة ، وهذا الركام لا يمكن أن ينكشف مرة واحدة ؛ فلا ينبغي للمصلح أن ييأس من روح اللّه مهما يبطئ النصر أو تتراخ من دونه الأيام ، فلا بد أن يظهر الحق مع إدمان الجهاد ، فمن سار على الدرب وصل ، ومن أدمن قرع الباب ولج ، والعاقبة للصابرين .

مكث الإسلام في مكة ثلاث عشرة سنة لا يدخل فيها إلا الضعفاء والأرقاء أفرادًا ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يتراجع ولم ينهزم ولم ييأس على الرغم من كل ما كان يلقى من كيد واستهزاء وسخرية ، حتى أثمر له صبره وجهاده وثباته ميدانًا جديدًا ، فهاجر إليه ، فظهر الإسلام بهذه الهجرة ، ولم يمض بعد ذلك ثمان سنوات حتى دخل الناس في دين اللّه أفواجًا ، وكتب اللّه لدينه الظهور على الدين كله .

علينا أن نأتسي برسول اللّه ﷺ في قوة إرادته ومضاء عزمه وصبره ومثابرته واحتماله وتضحيته وإيمانه بالحق وثقته بمصير الصابرين ، ويقينه وحلمه وسعة صدره ، وجميع مظاهر خلقه الكريم إن أردنا أن يكتب اللّه لنا النصر ونكون من الفائزين .

الشمس طالعة تثبت الضوء في كل مكان ، وتنشر الدفء في كل ناحية ، ولكن ليس يدركها من كان على بصره غشاوة ، أو كان جسمه في خدور ، هو معذور إن اعترف بأنه لا يرى ولا يحس ، وسلم للمبصرين الذين يحسون . أما إن بلغ به التبجح والغرور إلى حد أن ينكر على المبصرين ما تمكنهم سلامة حواسهم من رؤيته ، وحال أن يصدهم عن التعبير عن شعورهم ، فلا بد أن يؤخذ على يده ليتمتع سليمو الحواس بمشاعرهم ويعبروا عما يشعرون .

لو أن الكافرين سلموا للنبي ﷺ بما شعر به وما يحسه وتركوه يؤدي رسالة ربه ما شهر في وجوههم سيفًا ، ولا صوب إلى صدورهم سهمًا ، ولكنهم عارضوه ، ووقفوا في سبيله ، وصدوه عن أداء رسالته ، فاقتضت سنة العمران أن ينحيهم من طريقه ليمضي قدمًا نحو غايته ، فحاربهم وكتب اللّه له النصر والظفر : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] .

فلنستفد من درس الهجرة النافع المثمر ، ولتكن لنا في رسول اللّه ﷺ أسوة حسنة ، ولنعتصم بالصبر والثبات ، فإن اللّه مع الصابرين .

* * *

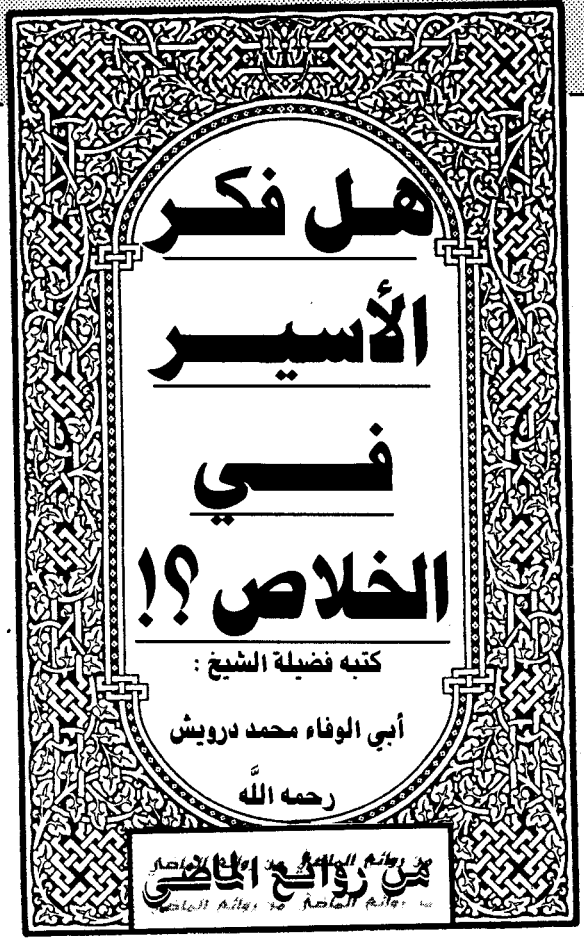

في العصور المظلمة ، يوم كانت الفوضى تسود العالم ؛ وتسيطر على الشعوب ، قبل أن ينبلج فجر الإسلام ؛ وتشرق شمسه على الآفاق ، كان الرجل القوي يلقى رجلاً من غير قبيلته يكون دونه قوة وشدة أسر ، فيسوقه أسيرًا ، ويتخذه عبدًا مملوكًا لا يقدر على شيء ، يسومه الخسف ، ويذيقه النكال ، ويجشمه أشد الأعمال ، وهو مقيم على الذل ، راضٍ بالخسف ، محتمل للضيم ، لا يرفع عقيرته بالشكوى ، ولا يضج من ألم ؛ لأنه إن أنكر على مالكه شيئًا مما يأخذه به ؛ سلط السياط على ظهره ، فمزقت أديمه ، وألهبت جلده ، وإن هو حلم بالحرية ، أو فكر في الخلاص ، وازدهرت في صدره الآمال الحسان ، أجال بصره فيما حوله فرده القيد إلى الحقيقة المرة ، ورجعه الغل إلى الواقع الأليم .

ثم منَّ الله على العالم إذْ بعث فيهم رسولاً يدعو إلى تنظيم الرق ، ويضيق دائرته ، ويحض على تحرير الرقاب ؛ وينذر بالويل والثبور من باع حرًّا وأكل ثمنه ، وأتاح للأرقاء من يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، وهيأ لهم من الأمم من اقتبست تعاليم الإسلام وذهبت تعمل على مكافحة الرق ؛ وتأخذ من الدول ميثاقها لتحارب الرق ما وجدت إلى ذلك سبيلاً ، فأمن الأفراد على حريتهم الغالية ، وصاروا يسلكون فجاج الأرض ؛ ويمشون في مناكبها ، ويبتغون من فضل الله ، وهم آمنون مطمئنون لا يخافون أن يتخطفهم الناس أو يذيقوهم مرارة الرق ؛ أو لباس الأسر ، أو غل العبودية .

أراح الله العباد من هذا الأسر ، ونجاهم من هذا الرق ، وأزاح عن صدورهم كابوسًا ثقيلاً كان يأخذ بكظمهم ، ويجعل الدنيا في أعينهم أضيق من كفة الحابل ، ولكنهم - وا أسفاه - أبوا إلاَّ أن يسلموا أنفسهم للون من ألوان الرق ، وضرب من ضروب الأسر ؛ هو شر مكانًا وأقبح أثرًا .

أعطوا بأيديهم للعادات السيئة ، وسلموها قيادهم ، فأصبحوا أسرى لا يستطيعون منها فداء ، ولا يملكون لأغلالها فكاكًا .

من الناس من ينفق وقته وماله حول المائدة

الخضراء ؛ لأنه أصبح عبدًا مملوكًا ، مملوكًا لعادة الميسر الخبيثة ، يبيت ليله ساهرًا مع رفقاء السوء ، ومضجعه في بيته خال ، قد أنسته هذه العادة أهله وولده ، وشغلته عن كل شيء ، وتبيت زوجه ساهرة تؤرقها الوحدة ، وتعصف بها الرغبة الجامحة ، والوحشة القابضة ، وما يدريه لعل الصبر يضل طريقه إلى نفسها ، فتغادر البيت هائمة على وجهها ؛ تبحث عمن تجد عنده حاجة جسدها ؛ ورضا قلبها ، وأنس نفسها ، وهو غافل عن نفسه وعنها ، قد استعبدته عادة الميسر ، وهي رجس من عمل الشيطان ، فأفسدته على نفسه وعلى أهله ، وقوضت صروح راحته وسعادته ، وذهبت بصحته وماله وشرفه .

قد يكون غنيًا من أولي النعمة والثراء ، فيطلق يده في ثروته ، حتى يأتي عليها ، فإذا هو ذو عسرة ومتربة يريق ماء وجهه بين يدي من كان يستنكف أن يلقي إليهم السلام ، ثم يمد يده إليهم ضارعًا صاغرًا ذليلاً .

وقد يكون من أولي الوظائف ، وقد عهدت إليه حراسة مال لا يملكه فيمد إليه يده الآثمة عابثًا مستهترًا ، لا ينظر في العواقب ، ولا يفكر في المصير ، فإذا هتك ستره ، وافتضح أمره - وذلك لا محالة واقع ، ما له من دافع - زج به في أعماق السجون ، فخسر نفسه ؛ وشرفه وراحته ، وربما تجرع السم ، أو سلط على نفسه رصاصة حامية تقضي على حياته فتسلمه إلى الجحيم وتريح منه .

أسرى العادات الفاسدة كثير ؛ وليسوا خيرًا من أسير الميسر ؛ فهناك أسير الخمر الذي يهبها دينه وعقله وشرفه وصحته وماله .

وهناك أسير النساء الذي يذر في بيته الجمال الحلال ، والحسن الصادق ، والعفة والصون ، والوفاء والحب ، ثم يرتمي في أحضان بغي لا ترد يد لامس ، ولا ترعى ودًا لصديق ولا تفي لحبيب ؛ جمالها كاذب ، وحسنها زائف ، همها أن تجمع المال وتستنزف الثروات ، أو تقضي وطرها ، وتشبع شهوتها ، فتسلم جسمها لكل من يصادفها ؛ وهي بعد متاع مشاع للفسقة والزناة من كل الطبقات .

وهناك أسرى السموم البيضاء ، يهبونها كل ما تملك أيديهم .

وهناك أسرى الغيبة ونهش الأعراض .

وهناك أسرى النميمة والسعاية والدس والفساد بين الناس .

هناك أسرى النفاق والرياء .

هناك أسرى البطالة والكسل ، الذين ينفقون أوقاتهم جلوسًا على المشارب ولا يستسيغون الشرب إلا من أقداح شرب بها قبلهم المزهورون والمسلولون والمجذومون .

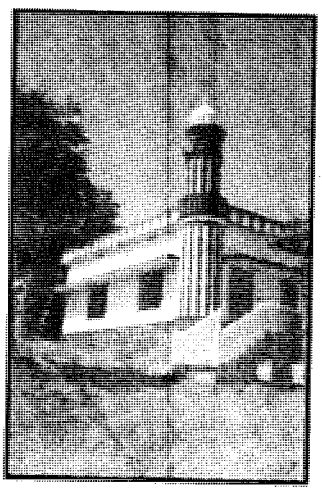

هنالك أسرى الأوهام ، وصرعى الأحلام ، وعباد الخرافات والضلالات ، المستمسكون بالجهالات ، الخابطون في العشوات ، الضاربون في الظلمات ، الذين غرهم السراب الخادع ، فراحوا يلتمسون منه بلالا لغلتهم ، وخدعهم الطلاء الكاذب ، فذهبوا يبتغون عنده شفاء لعلتهم .

هنالك الدجالون والمحتالون الذين يأكلون خبزهم بدينهم ،

حين يأكل الصانع والأجير والعامل خبزهم بعرق جبينهم .

هنالك الذين يؤذيهم أن ينتبه الناس من الغفلة ، ويخرجوا من الظلمة ، وتفتح أعينهم على النور ، ويروا الحقائق الناصعة ، فيعرضوا عن الباطل وأصحابه ، والضلال وأقطابه ، ويلتمسوا الحق من كتاب اللّه وسنة الرسول الأمين ﷺ .

هنالك الذين يسوءهم أن يقبل الناس على الحق الصراح ، وتَرِم أنوفهم أن يلتف الناس حول الداعين إليه ، فينعق الشيطان على ألسنتهم ، وينفث على أقلامهم بسبب الداعين إلى السنة ، والزراية عليهم ، والطعن فيهم ، ليصرفوا الناس عنهم ، ولكن الناس إذا تجلى لهم النور فهيهات أن يعودوا إلى الظلام ، وإذا ذاقوا طعم الحق فلن يرتكسوا في الباطل ، وإذا ارتووا من المنهل الغدق العذب الزلال ، فلن تهفو أنفسهم إلى الوشل الضحل الرنق الوبيء .

هنالك الذين يقدمون بين يدي اللّه ورسوله ، ويدعون لأنفسهم الحق في أن يشرعوا للناس في دين اللّه ما لم يأذن به اللّه ، ويفرضون على الناس أن يتبعوا شريعتهم الباطلة ، فإن أعرض الناس عنهم رموهم بالكفر والفسوق والعصيان ، وذهبوا يبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء .

وما أكثر العادات السيئة ! وما أكثر صرعاها وأسراها !

فهل فكر أولئك الأسرى في الخلاص ؟

وهل تاقت أنفس أولئك الصرعى إلى النجاة ؟

أيها المسرفون على أنفسهم !!

أيها الذين أسلموا أنفسهم للعادات الخبيثة حتى غلبتهم على أمرهم !!

أيها الذين طال إلمامهم بالشرور والآثام حتى أوشكوا أن يقنطوا من رحمة اللّه !!

أيها العصاة والمذنبون !!

أيها الدجالون والكذابون والمراءون والمنافقون !!

أيها المخالفون عن أمر اللّه ورسوله !!

لا تيأسوا من روح اللّه ، ولا تقنطوا من رحمة اللّه ؛ واتبعوا أهدكم سبيل الرشاد .

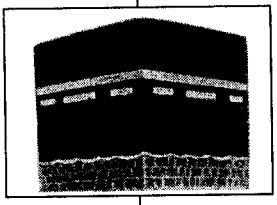

تعالوا أبصركم بدائكم ودوائكم ؛ واصغوا إلى ما أقول لكم تدركوا رشدكم وتظفروا بشفاء دائكم ، وصلاح أمركم ورضى ربكم .

تعالوا أيها الأسرى الذين يحسون ألم الأسر ، أيها الأرقاء الذين يضيقون بالرق ، وتتوق أنفسهم إلى الخلاص وتصبو إلى الحرية .

تعالوا أيها المرضى الذين يشعرون بوطأة المرض ، ويحرصون على الشفاء ويؤثرون العاقبة .

تعالوا أيها الظماء إلى ورد الحقيقة ، يا من أحرق أحشاءهم الشوق إلى المعرفة .

تعالوا إلى النمير الصافي ، والنبع الفياض من كتاب ربكم وسنة نبيكم ، ففيه ري الظمأ ، وشفاء الصدور .

تعالوا تعالوا ؛ فعندي لأمراضكم شفاء ، ولأدوائكم دواء ، فأخلصوا الرغبة ؛ واصدقوا النية تدركوا ما ترومون ، وتبلغوا ما تؤملون .

أما الذين سكنوا إلى الرق ، واطمأنوا إلى الأسر ، واستراحوا إلى العلة ، ورضوا بالداء فليس لهم عندي دواء .

لا ينجع الدواء إلا إذا عرف أصل الداء .

فما أصل أدوائنا .

أصل هذه العلل كلها رغبات خبيثة اندست في النفس ، واستجبنا لها ، وأعانها الهوى والشيطان وحب العاجلة ، فنشبت جذورها ، وثبتت أصولها .

فما العادة إلا ميل واستجابة وتكرار .

فإذا مالت نفسك إلى عمل ، واستجبت لها فعملت ما مالت إليه وكررت ميلك وعملك تكونت العادة في سر منك وأنت عنها غافل ، ثم اعتاص عليك الخلاص منها والشفاء من دائها .

أمراضنا الخلقية والاجتماعية عادات غلبتنا على أمرنا ، واستبدت بنا وسيطرت على نفوسنا .

فإن صح عزمنا على الخلاص منها ، والطب لدائها ، فإن السبيل ميسرة ؛ والدواء يسير غير عسير .

ولزم علينا قبل كل شيء ألا نسمح لأمراض جديدة تتسرب إلى نفوسنا حتى لا يعتاص علينا الشفاء ، ونقع في أمر مريج .

وسبيل ذلك أن نجتنب عشراء السوء الذين يوسوسون في صدورنا ، ويغرونا بالفساد ، ويبذرون في أنفسنا بذور الرذائل ، بما يدسونه في أذهاننا من أفكار الشر ، وأن توصد أبواب النفس دون كل خاطر سوء ؛ لأن خواطر السوء إذا توالى ورودها على النفس تغري بالاستجابة لها ، وتدفع إلى العمل بما تسول .

وإذ قد علمنا أن أصل العادات كلها رغبات تندس في الصدر ، وتهتف بنا أن نستجيب لها ؛ فلنستبدل برغبات الشر رغبات الخير ، فإن هتف الشر في جنبات الصدر ، بعثنا عليه للخير صوتًا أندى من صوته حتى يضمحل صوت الشر ويفنى في رنين صوت الخير .

فإذا استطعنا أن نبذل مكان رغبة الشر رغبات الخير فلنبادر إلى تحقيق هذه الرغبة ، ولنسارع إلى تلبية صوت الفضيلة بغير هوادة ولا فتور ، فإن أقل تريث يضعف الرغبة ، واذكر أن الحداد يطرق الحديد دائمًا حين خروجه من النار .

فإن اغتنمنا هذه الفرصة استطعنا أن نكسب عادات صالحة بدل العادات الخبيثة ، وإذًا نستطيع أن نضع قيادنا في يمين الحق والخير ، بدل أن نلقيه في يسار الباطل والشر ، وإذًا يستطيع كل منا أن يمشي سويًا على صراط مستقيم ، بدل أن يمشي مكبًا على وجهه ، سادرًا في ضلاله . إذا هجس في نفسك خاطر خير فلا تتردد في إخراجه من لفائف الفكر إلى ميدان العمل ، ولا تقصر في معاودة ذلك العمل وتكراره ما تسنت لك المعاودة ، ووسعك التكرار ؛ ليصبح الخير لك عادة تسمو بها نفسك ، ويتزكى بها قلبك .

إن وُفقت إلى الخلاص من عادة سيئة ، وظفرت بالشفاء من دائها فاحذر الحذر كله أن تعاود الإلمام بها أو التفكير فيها ، فإن ذلك يفسد عليك عملك ، ويهدم ما بنيت ، فترد إلى أسرك وتنتكس في دائك نكسة يضعف معها الأمل في شفائك .

إذا لاحت لك مخايل الفضيلة فلا تتردد في اعتناقها ، وإن بدت لك بوادر الخير فلا تتوان في اللحاق به ، واحذر أن تكون إمّعةً تطير بك الأهواء والشهوات ، أو تكون ضعيفًا خائر العزم تنقض اليوم ما أبرمته بالأمس ، وتبرم اليوم ما تنقضه غدًا .

وأساس ذلك كله أن تقوي إيمانك بتلاوة كتاب الله وتدبر آياته ؛ والنظر في سنة رسول الله ﷺ وسيرته الطاهرة ، والحرص على الاقتداء به ، وأن تجعل نصب عينك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٢ - ٤] .

وفقنا الله وإياكم للخلاص من مكايد الشيطان ومصائده ، وأخذ بأيدينا إلى مراشدنا ، وهدانا إلى سواء الصراط .

من خصائص الإسلام

إقرار مبدأ التسامي والدعوة إليه

كتبه: أبو الوفا محمد درويش

التطور سنة عاملة في الإنسان، لا تفتر ولا تقصّر، عملت فيه وهو جنين في ظلمات الرحم، كان نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم عظامًا كسيت لحمًا، فلما تم خلقه برز إلى نور الوجود ليعمل فيه التطور عملاً آخر، فكان طفلاً رضيعًا، ثم فطيمًا، ثم صبيًا، ثم مراهقًا، ثم شابًا، ثم بلغ أشده واستوى، واستكمل القوة والنمو، ووصل إلى ذروة الحياة. قال تعالى في توضيح تلك السنة التي لن تتبدل ولن تتحول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤]، وقال تعالى موجزًا هذه الأحوال أبلغ إيجاز: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤].

وإذا استكمل الإنسان قوته انحدر إلى الضعف كرة أخرى لتتم دورته الكونية ويعود إلى الأرض التي خلق منها، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨].

وغرائز الإنسان التي فطر عليها تدعوه إلى هذا التطور ما دام يتسامى به ويرتقي، فإذا جنح به التطور إلى الانحدار نفرت منه طبيعته، وحاولت أن تتخلص منه، وأن تلتمس السبيل إلى التسامي، فهو منذ حداثته يفكر في أن يكون رجلاً، وأن يكون له زوج وأولاد، ويفكر في جمع المال وادخاره وتنميته إن جارى غرائزه الفطرية ولم يخرج عليها، وإن كانت امرأة فكرت في أن يكون لها بعل، وفي أن تكون أمًا تحنو على أولادها، وترعاهم وتبسط عليهم جناح رحمتها، ثم عملت على ما يجعلها أهلاً لهذه الحياة المستقبلة، التي يسير بها التطور إليها، وتأبى غرائزها إلا أن تعدها لها.

والإنسان المعتدل المزاج، المستقيم الغرائز، يفكر دائمًا في أن يكون في حال خير من حاله، يتمنى أن يكون في صحة خير من صحته، وفي ثروة أوسع من ثروته، وفي جاه أعرض من جاهه، ومنزلة أسمى من منزلته، وهكذا يصدق قول الرسول الأمين ﷺ: «لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لتمنى أن يكون له واديان».

وإنك لتجد الإنسان حين تنحدر به الحياة إلى الضعف والشيخوخة يفكر في مقاومة عواملها ما وجد إلى ذلك سبيلاً، ويستعين على ذلك بأنواع من العلاج، وألوان من الدواء، عسى أن يحتفظ بقوته وشبابه، ويطيل أمد استمتاعه بالحياة، ولقد أدى ذلك إلى البحث عن الوسائل التي تؤخر الشيخوخة، أو ترجئ هجومها ردحًا من الزمن، ولكن هيهات، فلكل داء دواء إلا الهرم، سنة الله ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾.

وإذا أحس الإنسان دبيب الضعف في جسمه، والنقص في بدنه، فكر في المزيد والتسامي من ناحية أخرى، فكر في زيادة الثروة، إن مد له في أسبابها فازداد جدًا وكدًا، وحرصًا على المال، وضنًا به، وإن قدر عليه رزقه، وضاقت ذات يده، فلم يستطع المزيد من هذه الناحية، أقبل على المزيد في الدين، فلزم المساجد، وأقام الصلاة،

وأكثر من الصوم والذكر والاستغفار، وحرص على التسامي من هذا الوجه؛ لأن الفطرة الإنسانية تهيب بالإنسان إلى أن يتسامى دائمًا، في كل ناحية من نواحيه، فإن عجز عن ناحية لم يعجز عن الأخرى.

جاءت الشريعة الإسلامية فأقرت هذا المبدأ، لأن في إقراره مسايرة لسنة الله وموافقة للفطرة التي فطر الناس عليها، أقرت الناس على ما دعتهم إليه الفطرة من الطموح والتسامي، بل دعت إلى ذلك وحضت عليه، ليبلغ الناس الكمال الممكن الذي هيئوا له.

علم الشارع الحكيم أن العلم أول ما ييسر سبل الرقي أمام الأمم والشعوب، ويفتح لها أبواب المجد على مصاريعها، فدعا الناس إليه دعوة لا هوادة فيها، وحثهم على طلبه ليفتح أبصارهم على آياته في الأنفس والآفاق، فتتفتح لهم دلائل وجوده وقدرته، وعلمه وحكمته، ويعبدوه مخلصين له الدين، وليذللوا قوى الطبيعة التي سخرها الله لهم، ويخضعوها لمنافعهم، قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

العلم أول ما ييسر سبل الرقي أمام الأمم والشعوب ويفتح لها أبواب المجد على مصاريعها!!

وإنك لو سرحت ذهنك ساعة في تاريخ الإسلام لتجتلي ما كان له من مجد وعظمة، وسمو وطموح، وفتح وغلب، وعزة وانتصار؛ لأيقنت أن المسلمين السابقين ما ارتقوا إلا بالإسلام، ولا انتصروا على أعدائهم إلا باتباع هدايته، ولا اعتلوا العروش إلا بما بث فيهم من روح العزة والتسامي والطموح.

النظافة أخص ما تمتاز به الأمم الراقية، والشعوب الناهضة، فانظر كيف جعل الإسلام الطهارة شرطًا في صحة الصلاة التي هي عماد الدين، وكيف فرض الغسل على الزوجين إذا أفضى بعضهما إلى بعض، ودعا إليه، عازمًا مرة في كل جمعة. وكيف أوجب على المصلي طهارة ثوبه وبدنه ومكانه. فهذه دعوة إلى التسامي والرقي، ما في ذلك شك، وكفى بالنظافة، وهي عماد صحة البدن سموًا ورقيًا.

لم ينكر على الناس ما تدعوهم إليه الفطرة السليمة من الجنوح إلى اتخاذ الزينة، والاستمتاع بالطيبات، ولكنه حرم عليهم الفواحش التي هي علم الحيوانية، ودليل الوحشية، ورمز الجهالة والتأخر والانحطاط، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢، ٣٣].

ولما نهى رسول الله ﷺ عن الكبر بقوله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» لأنه من الجحود، وقلة المبالاة وضرب من الحيوانية الغافلة، قال له رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنة، فقال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»، فبيّن ﷺ أن التجمل بالمباح ليس من الكبرياء، ولكن الكبرياء أن يتنكر الإنسان للحق فلا يقبله، أو يحاول إبطال ما جعله الله حقًا من توحيده وعبادته، وأن يستهين بالناس ويحتقرهم، وكل هذا من الارتكاس الذي ينافي السمو الروحي والخلقي.

دعا هذا الدين الحنيف، إلى الاستباق إلى الخير، والتماس أسباب القوة والغلبة، وحض

على الحرص على ما ينفع، ونهى عن العجز. قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وروى مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز». وفي «الجامع الصغير» من رواية الطبراني: «إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره سفسافها».

من هذه النصوص تدرك أن الإسلام لا يوصد أمام الناس أبواب الرقي، ولا يصد عن سبيل التسامي، بل يشجع على سلوك هذه السبل، وولوج هذه الأبواب، وينادي بأن كل رقي إنساني في الدين والدنيا ممكن وميسر، بيد أنه موقوف على العمل. وروى مسلم عن أبي فراس ربيعة بن كعب الأسلمي خادم رسول الله ﷺ وهو من أهل الصفة رضي الله عنه قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال: «سلني». فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: «أو غير ذلك؟» قلت: هو ذاك. قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود». فهذا رجل التمس أسمى درجة في الجنة حتى لقد طمحت نفسه إلى أن يكون رفيق رسول الله في أعلى منازل الفردوس، لم يُيئسه الرسول ﷺ، ولم يسد عليه باب الأمل، بل بين له السبيل التي لو سلكها لصدقت أحلامه، وتحققت آماله، وطلب إليه أن يأتي من الأعمال ما يسمو به إلى هذه المنزلة، ولم يوسع أمامه دائرة العمل، حتى لا ينتشر عليه الأمر، وتتفرق وجوه الفوز، بل حصر العمل الموصل في دائرة واحدة، وهي كثرة السجود، ولا شك أن كثرة السجود من كثرة الصلاة، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والانتهاء عن الفحشاء والمنكر من طاعة الله ورسوله. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا. ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وروى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله»، وفي هذا حَضٌّ على العمل لها، والحرص على ما يقرب إليها، وبيان أن الظفر بها ليس من العسر بحيث يشق مطلبه، أو يعيي الوصول إليه.

الشرع الحكيم أمرنا بالسعي لكسب العيش أمراً لا يعرف هوادة حتى لا نكون عالة على الناس!!

وروى الترمذي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أريد سفرًا فزودني، فقال: «زودك الله التقوى». قال: زدني: قال: «وغفر ذنبك». قال: «زدني». قال: «ويسر لك الخير حيث كنت».

فها نحن أولاء نرى أن رسول الله ﷺ لم ينهه عن طلب المزيد، حين طلب المزيد، حين طمحت نفسه إلى المزيد من الخير والسعادة، بعد أن دعا له بالتقوى، ولا جرم أنها خير زاد، بل زاد وأفضل، ودل بهذا على أن خزائن رحمة الله لا تنفد، وعلى أنه ينبغي الإكثار من الدعاء، ومهما يتكثر العبد فالله أكثر.

أمرنا الشارع الحكيم بالسعي لكسب العيش أمرًا لا يعرف هوادة حتى لا نكون عالة على الناس، لأن ذلك ينافي التسامي والطموح الفطري، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وروى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

ولما كانت النفوس البشرية مفطورة على حب التنافس، وكان التنافس هو الذي يحدوها إلى التسامي، ويحفزها إلى طلب الكمال، دعا الرسول عليه الصلاة والسلام إلى إظهار آثار النعمة حتى يبعث في الناس روح التنافس، فيدفعهم ذلك إلى العمل وكسب المال الذي يرقى بهم إلى مستوى فوق المستوى الذي هم فيه.

روى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». إن في ذلك- فوق الثمرة الروحية وهي شكر الله بإظهار نعمته، والتجافي عَنْ غمطها وكتمانها- ثمرة أخرى اجتماعية، وهي بث روح التنافس في الأمة لتعمل على كسب المزيد من فضل الله.

قد يدعو الطموح وحب التسامي في العاجلة إلى إغفال الآخرة والتفريط في جنبها، لم يغفل الله هذه الحقيقة، بل نبه إليها حتى يتسامى المؤمن في حياتيه: الروحية والمادية، قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

لم يغفل الشارع الحكيم في الشريعة المطهرة، تنظيم الجانب الاجتماعي، بعد أن نظم حياة الفرد، وعلمه كيف يأخذ بأسباب التقدم والارتقاء، فدعا إلى إصلاح الجماعة لتنهض وترقى وتصل إلى الكمال الممكن.

أساس إصلاح الجماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فدعا إلى ذلك وحض عليه، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤، ١٠٥].

ولا جرم أن الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجتماع الكلمة، من أقوى أسباب نهضة الأمم والجماعات، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ليحض الشعوب على أن يصلحوا من شئون أنفسهم، ويلتمسوا المزيد من فضل ربهم، بتغيير ما هم فيه من فساد الخلق، وضعف القوى والكسل والتهاون والتراخي والإهمال والجمود.

ورأى الشارع الحكيم أن الجمود على عادات الآباء والأجداد والاستمساك بعقائدهم الفاسدة، مما يعوق الأمة التي تطمح إلى الرقي والجد، فعاب الجامدين، ونعى عليهم جمودهم، ليبعث فيهم الميل إلى تحطيم قيود الماضي والتخلص من أغلاله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

الرسول ﷺ دعا إلى إظهار آثار النعمة حتى يبعث في الناس روح التنافس الشريف!!

لم يرض الله من الطامحين إلى التسامي في دينهم وعبادتهم أن يقفوا عند حد الاقتداء بشيوخهم وسادتهم وكبرائهم، بل دعاهم إلى الاقتداء بالمثل الأعلى والأسوة الحسنة رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وبعد، فلو أطلقنا للقلم العنان لإيراد كل نص في كتاب الله وسنة رسوله يثبت أن الإسلام دين يدعو إلى السمو والطموح والمجد وينهى عن الجمود والانحطاط والتأخر لكتبنا سفرًا ضخمًا. وحسبنا ما أوردنا ففيه للمنصف المتدبر غناء، فما أجلّ الإسلام من دين، وما أرقى شريعته من شريعة.

اللهم أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة.

دعاء ليلة النصف من شعبان

بقلم فضيلة الشيخ
أبي الوفاء محمد درويش

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلاَّ على الظالمين ، وبعد :

هل من السنة أن يجتمع المسلمون في المساجد بعد صلاة المغرب في ليلة النصف من شعبان ليقرءوا دعاء خاصًا يلقيه عليهم الأئمة؟ وهل هذا الدعاء الخاص وارد في السنة ؟

إن هذا الاجتماع لم يكن على عهد رسول اللَّه ﷺ ولا على عهد خلفائه الراشدين ولا على عهد السلف الصالح ، وإنما هو من البدع ومحدثات الأمور التي حذرنا رسول اللَّه ﷺ إياها .

فقد صح أن رسول اللَّه ﷺ قال : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة».

وقد جاء في صحيح البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها : أن رسول اللَّه ﷺ قال : «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد».

ولا شك أن أمر رسول اللَّه ﷺ وصحابته وخلفائه لم يكن على هذا ولم يكونوا يجتمعون في هذا الوقت من هذه الليلة لقراءة هذا الدعاء ولا غيره، ولم يأت بذلك حديث صحيح ولا حسن ولا ضعيف ، ولا رواه أحد من رواة الحديث ، ولا جاء في كتاب من كتب السنة .

فما حرص المسلمين على عمل مردود عليهم لا يقبله الله ولا يثيب فاعليه؟ وما ثمرة عبادة يعلم صاحبها أنها لا تفتح لها أبواب السماء ، ولا تنال حظًا من القبول؛ لأنها ليست مما كان عليه أمر الرسول ﷺ وكل ما لم يكن عليه أمره من العبادات فهو مردود لا يظفر بشرف القبول .

هذا الاجتماع وما فيه بدعة ابتدعها المسرفون وأذاعوها ، وطوَّع الجهل للناس قبولها ، ففشت فيهم كما يفشو الوباء، وحتى صاروا يعتقدون أن هذا الدعاء يطيل العمر ، ويوسع الرزق؛ ويكشف البلاء ، وحتى صار من لم يتمكن من قراءته متشائمًا يتوقع حلول الأرزاء والنكبات في كل حين ، وقد بلغ من حرص الناس عليه أن تاركي الصلاة الذين لم تخط أقدامهم أعتاب المساجد يؤمونها في هذه الليلة لا للصلاة ولكن للدعاء.

وما هذه الليلة إلا كسائر ليالي العام لا تمتاز منها بشيء ، والأحاديث الواردة في شأنها ليس فيها شيء يرتقي إلى درجة الحسن فضلاً عن الصحيح ، بل كلها إما ضعيف واهٍ ، وإما موضوع كما قرره أئمة هذا الشأن .

قال الحافظ أبو بكر بن العربي : «ليس في ليلة النصف من شعبان حديث يساوي سماعه».

وأما الدعاء الذي يدعون به فلم يرد عن رسول اللَّه ﷺ ولا عن صاحب ولا أحد من أهل العلم يعرف ، وفيه أكاذيب تحمل المؤمن على أن يربأ بنفسه عن أن يدعو به؛ وإليك البيان :

من عبارات هذا الدعاء قولهم: «في ليلة النصف من شهر شعبان المكرم التي يفرق فيها كل أمر حكيم ويبرم»، وهذا معنى باطل ، لأنهم يقصدون : «ينقض فيها كل أمر حكيم ويبرم»، والأمر الحكيم لا ينقض .

ولا شك أن الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم هي ليلة القدر ، لا ليلة النصف من شعبان ، والمعنى : يفرق بينه وبين الأمر الباطل بالعلم والقرآن الذي هو الفرقان ، فمن أسند هذا الفضل إلى هذه الليلة فقد افترى على الله الكذب ، وكفى به إثمًا مبينًا .

وليلة القدر في رمضان يقينًا وليست في شعبان .

برهان ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .

فإذا ألّفت بين هذه النصوص علمت علم اليقين أن القرآن أنزل في ليلة مباركة فيها يفرق كل أمر حكيم .

وأنه أنزل في ليلة القدر .

وأنه أنزل في شهر رمضان .

وإذًا تكون الليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمر حكيم هي ليلة القدر .

وإذًا تكون هذه الليلة في شهر رمضان وإحدى لياليه .

وإذًا يبطل الدعاء بأن الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم هي ليلة النصف من شهر شعبان .

وإذًا يثبت كذب من يدعي ذلك .

ولا ينبغي لعبد مؤمن أن يوجه إلى الله دعاء مكذوبًا فإنه إثم ، والله لا يقبل الدعاء بإثم ولا عدوان .

هذا وللدعاء آداب تنبغي مراعاتها :

منها : أن يكون بذلة وضراعة وانكسار، ومنها : أن يكون خُفية بين العبد وربه ، قال تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾، وقد فسر العدوان برفع الصوت بالدعاء ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : «أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا وإنما تدعون سميعًا بصيرًا وهو معكم أينما كنتم».

فأين مراعاة هذه الآداب في هذا الدعاء؟

وقد بيّن لنا رسول الله ﷺ أحوالاً وأوقاتًا يكون فيها الدعاء أقرب إلى الإجابة فلنتحرّها ، ولنكثر من الدعاء فيها فذلك قَمِنٌ أن يحقق لنا الإجابة ، قال رسول الله ﷺ : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء» رواه مسلم .

وروى الترمذي من حديث أبي أمامة قال: قيل لرسول الله ﷺ : أي الدعاء أسمع ؟ قال : (جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبات).

والله تعالى يستجيب كل دعوة من العبد المسلم متى كانت خالصة بريئة من الإثم والكذب، فقد روى الترمذي من حديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : «ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى بدعوة إلا آتاه الله إياها أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم».

وخير الأدعية ما أثر عن رسول الله ﷺ وأنا موردٌ لك ذروًا منها لعلك تدعو به حين تصفو نفسك وتسمو روحك .

فعن أنس قال : «كان أكثر دعاء النبي ﷺ : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار». متفق عليه .

وعن ابن مسعود أن النبي ﷺ كان يقول : «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى». رواه مسلم.

وكان عليه الصلاة والسلام يأمر أصحابه أن يدعو بهذا الدعاء : «اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني». وهذا دعاء جامع يجمع الدنيا والآخرة .

ومن أدعيته عليه الصلاة والسلام : «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي من كل خير، واجعل الموت أمانًا لي من كل شر».

هذا وفي ذلك الدعاء مآخذ أخرى لا أرى ما يدعو إلى الإفاضة فيها ، فحسبي ما قدمت ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

شريعة الله

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

وضع الله جلت قدرته ، وتعالت حكمته ، لهذا العالم - نواميس ثابتة لا تتبدل ، وقوانين محكمة لا تتغير ؛ أحكم بها نظام السماوات والأرض ، تفكر في كل عجائب هذا الكون وغرائبه ، وأسراره ومعجزاته.: فهل تجد خطأ في هذه القوانين السامية التي انتظم عليها شأن العالم ، وقامت بها السماوات والأرض ، وصلح عليها أمر هذه الحياة ، واستقام بها نظام هذا الكون ثم فكر هل تجد نظامًا أبدع من هذا النظام ؟ وهل تظن أن هنالك إحكامًا فوق هذا الإحكام ؟

لقد غبرت العقول البشرية أحقابًا طويلة وقرونًا متراخية ، وهي تجهل كثيرًا من أسرار هذا الكون التي أودعها إياه فاطر السماوات والأرض منذ فطرهن ، وجعلهن مستقرًا للحياة والأحياء ، فلما أُبيح لها شيء من النضج هداها فاطرها لكشف شيء من هذه الأسرار التي تمس إليها حاجتها في هذه العصور ، وتدعو إليها ضرورتها في أجيال النور؛ وقد تبين لها أن هذه الأسرار تحكمها قوانين دقيقة إلى أقصى حدود الدقة ، محكمة إلى آخر غايات الإحكام ، مضبوطة إلى أبعد نهايات الضبط ، فسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

وبعد ، فهل أنتم مؤمنون بكل ما ذكرت؟

إن خالجتكم فيه الريبة أو ساورتكم الظنون فابحثوا وتأملوا ؛ وانظروا وجربوا ، وفكروا وقيسوا ، وقدّروا واستنبطوا واحكموا.

وإن عجزتم عن القيام بهذا كله ، وأعوزتكم الأداة الصالحة التي تعينكم عليه فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، سلوا العلماء الذين تجردوا لمثل هذه الأبحاث وأنضبوا معين العمر في السعي وراء حقائقها ، وصوّموا زهرات الحياة في انتظار نتائجها ، سلوا كل أولئك: هل تجدون في كل هذه القوانين الدقيقة التي نظم الله بها هذا الوجود : خطأ كثيرًا أو قيلاً ؟

سيجيبكم الراسخون في العلم منهم بأنهم كلما زادوا علمًا بحقائق هذا الكون زادوا إيمانًا بقدرة مبدعه، ويقينًا بعلمه وحكمته ، وهتفوا صائحين مرددين قوله الكريم : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾، ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾.

وبعد : فهل أنتم مؤمنون بأن الله جلت قدرته هو الذي خلق كل هذا الكون وأبدع كل هذا الوجود وأودعه كل هذه الأسرار، ووضع كل هذه القوانين المحكمة التي لا يلحقها خلل، ولا يدركها نقص ، ولا يمسها عيب، ولا يتخلف عن الخضوع لحكمها صغير ولا كبير؟

هل أنتم مؤمنون بأن الله سبحانه خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد؟

هل أنتم مؤمنون بأن الله يعلم حقيقة خلقه واستعدادهم وما يصلح شأنهم ، وما تستقيم عليه أمورهم؟ ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

هل أنتم مؤمنون بأن القوانين التي وضعها للسوائل والجمد مما لا عقل له ولا إرادة حكمتها حكمًا لا يعتوره خلل ولا يدركه فساد ؟

تلك سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً .

ولله قانون آخر في سياسة الدول والشعوب، فالدولة التي تستقيم على الطريقة يؤيدها بنصره ، ويعزها ويؤتيها رزقها رغدًا من كل مكان ، أما الأمة التي تخالف عن أمره ، وتتنكب الصراط السوي ، وتنحل أخلاقها ، وتتخاذل قواها ؛ ويسودها التنازع والتفرق ، فإنها تضعف ويعتورها الفشل والسقوط ، وتصبح مضربًا للأمثال ، قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق:٨-٩]، وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢]، وقال تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ

لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب:٦٢].

سل علماء التاريخ الذين تتبعوا بالدرس والتمحيص مجرى الأحداث التاريخية في الأمم قاطبة، ورأوا سنة الله في الأمم والشعوب ، وقدروا ارتباط الأسباب بمسبباتها ، والمقدمات بنتائجها : هل تخلفت سنة الله؟ أم هل تبدل ناموسه؟ أم هل تغير قانونه ؟ فلن نسمع منهم جميعًا إلا جوابًا واحدًا تلتقي عنده أراؤهم ، وتتفق عليه كلمتهم : إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإن أعمار الأمم كأعمار الأفراد : ضعف في طفولة ، وقوة في شباب ، وتماسك في كهولة ، وضعف في شيخوخة ، ثم موت وفناء ، ذلك تقدير العزيز العليم .

أي شيء في الوجود لم ينظمه الخالق بقانون ؟ أيّة ظاهرة من ظواهر الكون لم يجعلها القادر الحكيم أثرًا لمؤثر ؟ أي حدث من أحداث هذا الوجود لم يجعله اللطيف الخبير نتيجة لمقدمة ؟

إذا كان ربك قد أحاط بكل شيء علمًا ، وأحكم كل شيء نظامًا ، وأتقن كل شيء تدبيرًا؛ أفيعجز عن أن يضع للناس شريعة تنظم معاملاتهم ، وتحكم تصرفاتهم ، وتكف عدوان بعضهم عن بعض ، وتقف كلا عند حده؟

ربك الذي نظم كل شيء ، وأتقن كل شيء ، وأحاط بكل شيء علمًا ، وخلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن ، ونظم كل شيء فيهن ، ولم يعجز عن تدبيره، وقدر كل شيء تقديرًا؛ أفيعجز أن يضع تشريعًا ينظم سير البشر في معاشهم ، ومعاملاتهم ومعاشراتهم ومبادلاتهم ؟ حاشا لله ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر:٥٧].

وبعد فهل أنتم مؤمنون بأن الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق وأنزل عليه كتابًا قيمًا غير ذي عوج لينظم به شئون خلقه في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم ؟ لقد حكم هذا القانون البلاد الإسلامية كلها يوم كانت في أسمى ذرا المجد ، وكانت تسطير على العالم كله ، فحقق معاني العدل الإنساني كلها ، وأرضى الناس جميعًا ، وأسعد الناس جميعًا ، وأغنى الناس جميعًا ، ووطد قواعد العدل والنظام ، وأقام صروح الثقة والطمأنينة ؛ وأنشأ بالحق المدينة الفاضلة التي كان يحلم بها الفلاسفة القدماء .

سيقول المفتونون بالغرب والغربيين : إنه قانون وحشي لأنه يجلد الزاني والزانية إن كانا بكرين أو يرجمهما إن كانا محصنين ، ويقطع يد السارق ويجلد القاذف والشارب . انظر كيف يفترون على الله الكذب، وكفى به إثمًا مبينًا .

لفضيلة الشيخ
أبي الوفاء درويش رحمه الله

أهذه هي الوحشية التي تزعمون ؟ وهذه الآلاف المؤلفة ، بله الملايين من زهرة الشباب التي تُجمع وتُساق إلى ميادين القتال سَوْق الشياه البلهاء إلى المجازر ، حيث تزهق أنفسهم ، وتراق دماؤهم ، وتتمزق أشلاؤهم ، وحيث يتركون وراءهم أيتامًا لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ، وأرامل تضيق بهن سبل العيش فيلتمسنه من سبل يأباها الشرف والفضيلة ، أليس هذا كله وحشية تضج من هولها الأرض والسماء؟

قتل الأبرياء بغير ذنب ولا جريرة ، واستعباد الشعوب ، وامتصاص دماء الأمم واستنزاف ثرواتها بغير الحق في نظركم مدنية ورقي ونظام - وعقوبة مجرم مفتات على الفضيلة ، معتد على حقوق الضعفاء ، منتهك لحرمة الأدب : تعدونها وحشية.

وليس يصح في الأذهان شيء
إذا احتاج النهار إلى دليل

إن شريعة الله القاضية بعقاب الزاني والسارق والقاذف لو نفذت مرة واحدة لكان تنفيذها كفيلاً باستئصال شأفة هذه الجرائم إلى الأبد .

دُونكم كتب التاريخ : فتشوا في بطونها ، استنبئوا صفحاتها ، ثم انظروا كم مرة وقعت عقوبة الرجم في القرن الأول من حياة الإسلام؟ أيام أن كان هذا القانون مرهوب الجانب ، قوي السلطان ، تُخشى سطوته ويُرهب بأسه .

إن الله الذي برأ الخلق وأودعهم غرائزهم، وركب فيهم طبائعهم ، هو وحده العليم بما يحدّ من طغيان هذه الغرائز ، ويكف من غلواء هذه الطبائع .

قل لهؤلاء الذين يشفقون على اللصوص والعارمين ، والفساق والعاهرين ؛ والشطار والداعرين، إن ما يصيب هؤلاء جميعًا في الدهر الأطول من تنفيذ شريعة الله على من يخالف من أمرها في الأرض إلى أن يحكم بين الخلق أحكم الحاكمين ؛ لا يكاد يذكر بجانب ما توقعون من الأذى في يوم واحد بالأبرار والأطهار والأبرياء الذين لم يقترفوا إثمًا ، ولم يُلموا بمعصية ، ولم يفكروا في خطيئة .

أحيوا الضمائر ، وهذبوا الوجدان ، وأيقظوا القلوب ، ونبهوا النفوس إلى مراقبة خالقها القادر الحكيم .

والحمد لله رب العالمين.

من روائع التراث

صناعة الكرامات

لفضيلة الشيخ أبي الوفاء درويش رحمه الله

أجَلْ، وإنها لصناعة- لو تعلمون- رائعة بارعة، خلابة للعقول، جلابة للمال، مسخرة للرجال.

وإنها لصناعة دقيقة لا يتاح إتقانها لكثير من الناس، إنما يحذقها الأذكياء الموهوبون الذين أوتوا من الذكاء حظًا عظيمًا، ومن الدهاء قسطًا موفورًا، ومن الفراسة نصيبًا غير منقوص، والذين امتازوا بمرونة الأعضاء، وسرعة الحركة، والقدرة على العبث بالألباب.

وصناعة الكرامات كصناعة إحضار الأرواح لا تمارس في أي زمان، ولا في كل مكان ولا في كل حال، إنما تمارس في أمكنة خاصة، وفي أزمنة موائمة، وفي أحوال مناسبة.

وخير الأمكنة لمزاولة هذه الصناعة عقر الدار، وعلى كثب الأستار، ومستقر الأسرار، وعلى مقربة من الأداة والعتاد، والأجهزة الشداد.

وأنسب الأوقات، حين تتكاثف الظلمات، ومن دون ذلك وقت الغَلَس، إذا خبا القَبَس، وانطوى النهار، وغابت الأنوار.

أما أحسن الأحوال: فحال شهود الأطهار الطيبين، والأخيار الغافلين، وغيبة الأذكياء النابهين، والفطناء الفاهمين، إذ لا شيء يفسد الكرامات ويذهب بروعتها، كما يفسدها الوقوف على حقيقة أمرها، والاطلاع على مكنون سرها، والأذكياء خبثاء، لا يقنعون بظواهر الأشياء، ويأبون إلا أن يفسدوها بالتغلغل في خفاياها، والتوغل في طواياها.

وصناعة الكرامات إنما تبلغ قمة النجاح بشرطين متضادين: ذكاء وخبث في صانعها، وغباء وطيبة في شاهدها، فإذا فقد الشرطان أحدهما أو كلاهما فسدت الصناعة، وذهبت البراعة.

وصُنَّاع الكرامات لا يمارسون صناعتهم إلا حين يعتقدون أن الظروف كلها مواتية، وشروط النجاح موفورة، واحتمال الفشل بعيد.

ومن دون الشرطين السابقين شرطان آخران: المواطأة والإيمان.

أما المواطأة فأن يكون صانع الكرامات متواطئًا مع شريك يعرف سره، ويدبر أمره يتحداه أمام الحضور، وقد هيّا له الأمور.

أما الإيمان فأن يكون جميع الحاضرين مؤمنين بقدرة الشيخ على إحداث الكرامات كما يشترط في روّاد غرفة التحضير أن يكونوا جميعًا مؤمنين بقدرة الوسيط على

إحضار الأرواح، فإن كان بينهم من يشك أو يرتاب وأدرك الشيخ ذلك بفراسته لم يحاول ممارسة الكرامة، لئلا يفتضح أمره وينكشف سره.

وقد فشت هذه الصناعة وذاعت في آخريات القرن الثاني الهجري وما تلاه من القرون، وظن العلماء الطيبون الذين يرون الأشياء بعيون طباعهم الخيرة أنها كرامات حقًا، وراحوا يتلمسون العلل والأسباب لكثرتها المروعة، فقالوا: «إن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها ضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوي إيمانه ويسد حاجته، أو يكون من هو أكمل منه ولاية مستغنيًا عن ذلك فلا يأتيه لعلو درجته وغناه عنها، لا لنقص ولايته، ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة».

وهذا كلام لا يقره المنطق، ولا يسيغه عقل، فإن الكرامة الحق، وهي من إكرام الله تعالى للصالحين من عباده يختص بها أقوياء الإيمان لا ضعافه، فإن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

والتعليل الصحيح أن ما ذاع وشاع وملأ الوهاد والتلاع ليس كرامات حقيقية، وإنما هو من قبيل الكرامات الصناعية، وكانت كثرتها لقلة الإيمان وضعف اليقين، وفساد الضمائر، وخراب الذمم، فأقدم على ممارستها عمدًا من لا يخاف الله، ولا يرجو له وقارًا، فعلوها خداعًا وتمويهًا وعبثًا بعقول الناس، ليقنعوهم بأنهم أولياء فيمنحوهم أموالهم، والله يعلم إنهم لكاذبون.

ترامت أنباء كرامات «الحلاج» وبلغت مسامع بعض الأذكياء فأراد أن يقف على حقيقتها، فركب إليه، ولما صار في حضرته قرأ الحلاج في معارف وجهه أمارات الإنكار، فقال: يغشون دارنا، ليعترضوا علينا، ويسيئوا إلينا، يا هذا اطلب ما شئت يأتك بإذن الله، قال الشاب الذكي: أريد سمكًا طريًا، وكان الحلاج في ذلك الوقت في بعض بلاد الجبل البعيدة التي ليس فيها بحر ولا نهر، وظن الشاب أنه أعجزه إلى آخر الأبد، وأخمده مدى الدهر، ولكن الحلاج ابتسم ابتسامة ذات معنى وقال: ما أيسر ما طلبت! ثم دخل حجرة في داره وأغلق بابها وعاد بعد ساعة، وقد حسر عن ساعديه، وكشف عن ساقيه، وبيده سمكة حية تضطرب، وقال: إني دعوت الله فأمرني أن أذهب إلى الأهوار، وأن آخذ هذه السمكة من ملتقى الرافدين، فأخذتها، وجئت بها إليك، لتنزع ما في صدرك من شك.

قال الشاب: أتدعني أدخل هذه الحجرة، فإن لم يسفر لي وجه الحيلة أمنت بك؟ قال: شأنك وما تريد.

قال الشاب: فدخلت الحجرة فلم أجد فيها شيئًا، ثم حانت مني التفاتة فرأيت بابًا في الجدار لا يكاد يظهر إلا للمدقق المتأمل، لأنه بلون الجدار ومساواته فدفعته ففتح، فدخلت فإذا أنا بحديقة لا يبلغ البصر غايتها، فيها صنوف الفاكهة والثمار والأزهار، ومنها ما ليس في وقته ولكنه محفوظ بحيل صناعية، وفي هذه الحديقة خزائن فيها ألوان الأطعمة الناضجة والمواقد المعدة لإنضاج ما يطلب لساعته، ثم رأيت في وسطها بركة ماء مملوءة سمكًا، فأخذت واحدة وخرجت بها فرميت بها في وجهه وصدره، وأردت الهرب فأمسك بي وهمس في أذني قائلاً: لئن حدثت بها أحدًا لأقتلنك ولو كنت وراء سبعة أبحر أو سبعة جبال، ثم عاد يقول لجلسائه: هذا ولي من كبار الأولياء جاء ينافسنا في كراماتنا!!

قال الشاب: ولم أجد بدًا من الكتمان، فلم أخبر بذلك إلا بعد مقتل الحلاج حذرًا أن يغْري بعض المفتونين به فيغتالني.

هذا والمؤمن الصادق كيّس فطن، لا ينبغي أن تجوز عليه الحيل، أو يقع في الأحابيل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل(*).

(*) هذا الاحتيال هو جانب من صناعة الكرامات، وثمة جانب آخر وهو صناعتها عن طريق السحر والتعامل مع الشياطين، فبهم يستعين الساحر في إظهار أشياء وتسليط الحيات والأفاعي، قال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٦]. [التحرير]